المكتبة الثقافية
٨٨

العرب والتتار

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول يوليه ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة بأقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب ٠
- تصدر مرتين كل شهر ٠ فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

قصة المعادن الثمينة

الدكتور أنور عبد الواحد

١٠ يوليه ١٩٦٣

مطابع دار القلم بالقاهرة



المكتبة الثقافية

٨٨

العرب والتتار

الدكتور ابراهيم أحمد العدوى

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول يولية ١٩٦٣

الناشر



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يقف على رأس كل مرحلة من مراحل تاريخ الأمة العربية وعند نهايتها هاتف يذكرها بوصية شيخ العرب ، التى لقنها لأبنائه فى درس عملى بسيط ، مبينا لهم أن أشد الأعداء لن يقوى عليهم إذا اتحدت سهامهم ، على حين ينال منهم أضعف الخصوم وهم متفرقون . فأثبت لهم أن أقواهم يعجز عن تحطيم حزمة السهام على حين يسهل على أصغرهم كسر أقوى تلك السهام إذا انفرط شملها ثم سجل نصيحته لهم فى هذا القول الخالد :

كونوا جميعا يابنى إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا
وإذا افترقن تكسرت أفرادا

ويعرض هذا الكتاب إلى ضرب مثل عملى آخر للأمة العربية يذكرها بفوائد الاتحاد ، ويبين لها مدى ما يكمن

فى اتحادهم من قوة قادرة على خلق المعجزات . فجحافل التتار التى أخضعت ملايين البشر من أهل الصين وجنوب أوربا عجزت عن تحطيم قوة العرب بعد أن كادت تنال منها ، حين استطاعت مصر أن تكون جبهة عربية متحدة من جيوشها وجيوش الشام كانت أعدادها بالنسبة الى التتار مثل قطرة الماء من المحيط .

ويبدأ العرض التاريخى بشرح حالة الأمة العربية عند ظهور التتار وتجمع سحب أخطارهم فى أفق الشرق العربى . فكانت البلاد العربية تقف فى مفرق طرق يقسمها قسمين متباينين ، الأول فى العراق التى أصابها اذ ذاك شلل مقعد منذ فضل الخليفة المعتصم بها الاعتماد على الأتراك ، وأقصى أبناء أمته العربية عن مناصب الجيش والإدارة ، والثانى فى مصر التى امتلأت بصيحات الجهاد ضد الصليبيين الذين حولوا أنظارهم من الشام إلى الاستيلاء على دمياط والسيطرة على الديار المصرية ، لأنها صارت فى نظرهم بعد انتصارات صلاح الدين الأيوبى عليهم هى سر قوة العرب ، وصاحبة الإمكانيات الواسعة التى كفلت لهذا البطل العربى تدمير قوتهم فى الشام .

وفى هذا الوقت العصيب من تاريخ الأمة العربية هجم التتار على منطقة الأطراف الإسلامية فى الشرق ، والتى تكونت

من بلاد ما وراء النهر وخراسان ، دون أن تلقى أية مقاومة . ذلك أن الأتراك فى العراق أهملوا شئون تلك الجبهة التى كانت بمثابة السور الأمامى الذى حرص العرب أيام مجدهم على حراسته وسد منافذه أمام القبائل الآسيوية الزاحفة على بلادهم فى الشرق العربى . وصاحب هذا الإهمال الحربى واختفاء سلطان العرب ظهور العملاء الذين وضعوا دسائسهم فى خدمة التتار والتمهيد لزحفهم على البلاد العربية .

غير أن مصر تداركت البلاد العربية سريعاً ، وأنقذتها من كارثة موحشة ، حين عبأت قواها لخلق جبهة عربية متحدة تتصدى للتتار وتحطم أذاهم . وساعد مصر على ذلك خروجها منتصرة على الصليبيين ، وخلوها من مظاهر التفكك أو الضعف وقدمت مصر فى هذه المرحلة من جهادها أروع الأمثلة على إخلاصها التام للوطن العربى الأكبر ، وأعظم التضحيات عن طيب خاطر من أجل سلامة الأسرة العربية كلها . وذلك أن التتار استخدموا طبقة من العملاء العرب من شتى الأصناف من التجار والعسكريين حتى من بين العلماء من رجال الدين ! ، أشاعوا الفرقة فى الصفوف ، وعدم الطمأنينة فى النفوس ، حتى أصبح أمراء البلاد العربية يتشكك بعضهم فى بعض ،

ويتردد كل فرد منهم فى مد يده لمساعدة الآخر ، وأصبح الاعتقاد الشائع عند الجميع ، من الكبير إلى الصغير أن التتار قوم لا ينهزمون ، وتقتضى الضرورة الاستسلام لهم والخضوع لسلطانهم .

ومن ثم كانت رسالة مصر فى تعبئة وحدة الصف العربى شاقة ومريرة ، لأنها تتطلب تحقيق هدفين أساسيين ، الأول هدف نفسى ، يبغى إزالة العقد النفسية التى خلقها عملاء التتار بين أبناء الأمة العربية ، والثانى هدف حربى ، يرمى إلى تنظيم الجهود الحربية مهما كانت ضئيلة لضرب التتار . ونجحت مصر نجاحا باهراً فى تحقيق الهدف الأول حيث أفسدت على العملاء العرب دسائسهم ، كما قدم قادتها للأمراء العرب نماذج عملية من حسن النية ، على نحو ما سوف يلمسه القارئ للفصل الأخير من هذا الكتاب . وفى الوقت نفسه استطاعت خلق جبهة عربية متحدة من جيوشها وجيوش الشام ، كان رائدها الثقة المتبادلة ولا مصلحة لها إلا الذود عن حياض العرب. وتمكنت مصر بذلك من إنزال أول هزيمة حربية نكراء فى تاريخ التتار عند عين جالوت التى شاءت الأقدار أن تجعل مسرحها على أرض فلسطين الطاهرة ، وإعادة العرب إلى ديارهم وسالف مجدهم .

ويلمس القارئ للعرض التالى نماذج رائعة قدمها الأجداد والآباء جديرة بأن يحتذيها اليوم أبناء العروبة . فالأمة العربية تواجه فى الوقت الحاضر أطماع المعسكرين الغربى والشرقى ، كما واجهت من قبل الصليبيين والتتار . وشاءت الأقدار أن تلقى على مصر ، كما ألقت عليها أيام التتار والصليبيين عبء مقاومة الخطر الجديد الغربى والشرقى . واستطاعت مصر بفضل قادتها اليوم أن تكسب الجولة الأولى فى تحقيق رسالتها العربية بالانتصار على العدوان الثلاثى على بور سعيد ، كما انتصر أسلافهم من قبل على أعداء العروبة من الصليبيين على دمياط . ثم إن مصر تتابع الآن رسالتها فى تحرير العراق من العملاء كما حررته من قبل من عملاء التتار ، حتى تستعيد الأمة العربية سالف هيبتها ، وتستأنف بدعوتها إلى الحياد الإيجابى دورها فى إنقاذ العالم من كوارث تهدد بضياع حضارته ، كما سبق أن أنقذت المدنية العالمية من تخريب التتار ووحشيتهم .

إبراهيم أحمد العدوى

الشرق العربى في مفترق الطرق

الخلافة العباسية فى أواخر أيامها

مناطق الأطراف الإسلامية

شبه الجغرافيون العرب الدولة الإسلامية فى أوج عزها بالطائر ، له صدر وجناحان ، فالصدر يضم مصر والشام والعراق وبلاد العرب — وهو ما نعرفه اليوم بالشرق العربى ، والجناح الأيمن يشتمل على امتداد بلاد المسلمين فى فارس وأرض ما وراء النهر (نهر سيحون) بأواسط آسيا ، والجناح الأيسر يتكون من ليبيا وتونس وبلاد المغرب — أى الجزائر ومراكش . وتتجلى دقة هذا الوصف فى أن الصدر وهو الشرق العربى ، يحتوى على القلب الذى يرتبط بسلامته وقوة نبضه حياة الجناحين وارتفاعهما فى مدراج العظمة والعزة ، كما ينجم عن أى ضعف أو مرض يصيب هذا القلب شلل الجناحين بحيث يصبح كل منهما مهيض الجانب لاحراك فيه .

وفهم الحكام العرب على اختلاف دولهم فى عصور الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين الأول تلك الحقيقة السالفة ، ووضعوا نصب أعينهم رسالة توارثوها خالفا عن سالف قوامها المحافظة على سلامة هذا الصدر ، والمبادرة إلى دفع أى خطر يتهدده ، مباشرا كان أم غير مباشر ، قريباً كان أم بعيدا . ذلك أن أعداء الشرق العربى كانو يتركزون فى جهتين ، الأولى قريبة ومباشرة ، وتتمثل فى دولة الروم الرابضة على الأطراف الشمالية لإقليم الشام خلف سلسلة جبال طوروس ، والثانية بعيدة وغير مباشرة وتتكون من مجموعة القبائل البدوية الضاربة فى أواسط آسيا فيما بين شمال فارس وشرقى بلاد ما وراء النهر . وكانت دولة الروم بعاصمتها القسطنطينية تعتبر أقوى دول أوربا جميعاً فى ذلك الوقت ، وتحمل لواء العداء لسلطان العرب الناهض فى ظل الإسلام ، وتنظم الحملات الحربية للهجوم على شتى أرجاء الشرق العربى ، فى الشام والعراق ومصر . وفى الوقت نفسه كانت القبائل البدوية الآسيوية تضرب على منطقة الأطراف الإسلامية بين فارس وبلاد ما وراء النهر ، وتبعث بأنظارها إلى الشرق العربى وإلى إقليم العراق منه خاصة ، حيث يسيل لعابها ما حفلت به تلك البلاد من خيرات وثروات .

غير أن محاولات كل من هذين العنصرين ، الروم والقبائل البدوية الآسيوية ، قد تحطمت على صخرة الشرق العربى ، بسبب يقظة الخلفاء العرب ، ومنعة الخطط التى رسموها للاحتفاظ بقلب العروبة نابضا . ذلك أن سياسة أولئك الخلفاء العرب اعتمدت فى الدفاع والإدارة على مواطنيهم من أبناء الأمة العربية ، وتقليدهم رياسة الجيوش ومناصب الحكومة . ولذا استطاعت السلطات العربية أن ترد إغارات الروم المتكررة على الشام والعراق ، وتحمل أباطرة هذه الدولة على تقديم الجزية فى مقابل حصولهم على السلام من جانب العرب ، وتأديباً لهم على أعمالهم العدوانية . وفى الوقت نفسه لم تستطع القبائل الآسيوية أن تقتحم منطقة الأطراف الإسلامية ، لأن الخلفاء وضعوا للشطر الشرقى من دولتهم نظاما إدارياً محكما لم يصد هجمات تلك القبائل فحسب ، وإنما بدأ يحد من وحشيتها إلى حد كبير بنشر الإسلام بين أفرادها .

إقصاء العرب عن الإدارة :

واستمر الشرق العربى مهابا ، يتولى شئونه أبناؤه حتى مطالع القرن الثالث الهجرى ، أى التاسع الميلادى . ذلك أن

مرضاً مفاجئا نزل بهذا الصدر من الدولة الإسلامية حينئذ ، ثم لم يلبث أن امتد إلى القلب ، وأدى إلى شلل وجمود بالتالى فى منطقة الأطراف الإسلامية . وكان سبب هذا المرض العضال الذى حل بالشرق العربى هو الخليفة المعتصم العباسى (٢١٨هـ/٨٣٣م) ، إذ خرج إلى منصب الخلافة جاهلا بالقيم العربية وتقاليدها ، وقاصرا عن فهم السياسة الحكيمة التى سار عليها من سبقه من الخلفاء ، ولاسيما أبوه هارون الرشيد وكذلك أخوه المأمون ، فى إدارة الدولة . فكان الأب والأخ من الأمناء على العروبة ، الساهرين على سلامتها ودفع كل خطر يتهددها ، مهما كان لونه أو نوعه . غير أن المعتصم نال من أمه التركية الأصل غذاء أفسد عليه تربيته العربية ، وجعله يتطلع إلى أبناء خؤلته من الترك ؛ ويخصهم من دون بنى بلدته من العرب بالعطف والرعاية .

ولم يلبث هذا العطف أن تحول إلى هيام بالترك أعمى وأصم ، إذ اتخذ المعتصم منهم حرسه الخاص من دون العرب . فكان يبعث سنويا إلى بلاد ما وراء النهر حيث ضربت القبائل التركية هناك ويشترى منها الشبان ، وينقلهم رأساً إلى بغداد لتدريبهم وإعدادهم للجندية . وهيأ المعتصم بذلك للترك ثغرة فى منطقة

الأطراف الإسلامية يتثالون منها مباشرة إلى قلب الشرق العربى نفسه ، وتحقيق الحلم الذى راودهم مراراً وتكراراً من قبل ، بأيسر سبيل وأقصره . ولم يلبث هذا الحرس التركى أن أساء إلى العرب من سكان بغداد ، حيث ركضوا بخيولهم فى شوارعها ، كأنما هم فى براريهم الأولى ، وملقين فى غير مبالاة أو اكتراث بنساء العاصمة وأطفالها وشيوخها تحت سنابك تلك الخيول . واشتد التذمر والسخط بين العرب فى بغداد ، حتى إن أحد شيوخهم خاطب المعتصم قائلا :

« يا أبا إسحق (كنية للمعتصم) لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج (أى حمير الوحش — ويعنى بهم الأتراك) فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت بهم نساءنا وقتلت رجالنا » .

غير أن المعتصم كان أصم الأذن أعمى القلب ، فلم يفهم هذا النداء العربى المخلص ، ثم تمادى فى ضلاله بارتكاب أخطر خطوة فى تاريخ الشرق العربى وسلطان العروبة كذلك ، إذ أمر بإسقاط العرب من الديوان ، أى أبعدهم عن مناصب القيادة فى الجيش ، وكذلك عزلهم عن إدارة الولايات ، ووضع مكانهم شخصيات من الأتراك المقربين إليه . ولم يلبث أولئك الأتراك

أن صاروا خطراً يخشاه المعتصم نفسه ، لا يطيعون له أمراً ، بعد أن صارت مقاليد الأمور فى أيديهم . ولم يفق المعتصم إلى ماجنت يداه إلا فى أخريات أيامه ، حين وجد نفسه محاطا بقوم غرباء ، قد عزلوه عن أهله من العرب .

ولقد عبر المعتصم عن خيبة الأمل الذى ملأته عن أولئك الأتراك لأحد أصدقائه المقربين ، مظهراً أسفه كذلك ، لأن قادته من الترك لم يسيروا على النهج الذى سار عليه قادة سلفه فى الخلافة وهو أخوه المأمون . فأجاب الصديق المعتصم بقوله : « يا أمير المؤمنين ، أعزك الله ، نظر أخوك الى الأصول (أى العرب) فاستعملها ، فأنجبت فروعا ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً (أى الأتراك) فلم تنجب ، إذ لا أصول لها » .

ولم يلبث خطر الأتراك أن اشتد بعد وفاة المعتصم نفسه ، وتحولوا من مجرد عصيان الخليفة إلى النيل من مكانة الخلافة نفسها ، التى كانت تعتبر رمز عزة العرب وسلطانهم . فصار الترك هم الذين يولون الخلفاء ويعزلونهم حسب مشيئتهم وهواهم ومن وقف فى سبيلهم من أولئك الخلفاء قتلوه ، ومن ارتابوا فيه اكتفوا بسمل عينيه ، ثم السماح له بأن يقضى البقية الباقية من حياته فى مملكة الظلام ، وذلك ليكون عبرة لغيره ، ولمن

تحدثهم أنفسهم بعدم الولاء التام للجند الترك .

تبديد التراث العربي :

وسرعان ما اتسع خطر الانقلاب التركى الذى أحدثه الخليفة المعتصم ، فامتدت أضراره من مجرد انتزاع المناصب من العرب إلى تبديد التراث العربى نفسه ، ثم انتهت نتائج ذلك الانقلاب أخيراً بأن جلبت على الشرق العربى أشد خطرين شاهدهما فى تاريخه الطويل هما : هجمات الصليبيين وإغارات التتار من بعدهم على بلاده ومدنه . إذ كان التراث العربى قائما على أساس احترام جيران العرب لسلطان العروبة ، وإظهار كل إجلال وهيبة لأرض الوطن العربى . ذلك أن الدول العربية اتفقت على اختلاف ألوانها السياسية على متابعة راية الجهاد فى سبيل الدفاع عن كل جزء من الوطن العربى سواء أكانت العاصمة فى المدينة بالحجاز ، أم فى دمشق بالشام ، أم فى بغداد بالعراق ، أم فى القاهرة بمصر . إذ أدركت السلطات فى كل عاصمة من تلك المدن الكبرى أنها مسئولة عن سائر أرجاء البلاد العربية ، على نحو ما يقوم به الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وتجلت تلك الحقيقة السالفة من أركان التراث العربى عندما ضعف سلطان الخلافة العباسية بسبب سيطرة الأتراك على مقاليد الأمور فى بغداد . فقد بدأت الأطماع تراود الروم فى الهجوم على شمال الشام والعراق مرة أخرى ، وانتهاز ضعف سلطان العرب والاستيلاء على المراكز والحصون العربية الهامة المجاورة لحدودهم . غير أن سلطة عربية جديدة نهضت إذ ذاك فى القاهرة وهى الخلافة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣ م واستطاعت على الرغم من اختلافها المذهبي مع الخلافة العباسية أن تتابع من القاهرة رسالة العروبة ، وهى الدفاع عن سائر أرجاء الوطن العربى ، ومنه العراق نفسه ضد إغارات الروم . وتتضح جسامة المسئولية التى ألقيت على عاتق الخلافة الفاطمية فى أن دولة الروم شاهدت فى فترة ضعف الخلافة العباسية ثلاثة من أعظم أباطرتها العسكريين ، الذين اكتسحت حملاتهم شمال الشام والعراق ، واقتربت إغارات أحدهم واسمه حنا شميشق من بيت المقدس نفسه ، غير أن الجيش المصرى حطم تلك الهجمات الخطيرة التى قام بها الروم ، وجعل من الشرق العربى كله وحدة آمنة ، لا تستطيع يد الأعداء أن تمتد إلى أى رقعة منه ، حتى أرض العراق نفسها على الرغم مما سادته اذ ذاك من فوضى التنازع بين

الأتراك على السلطان ، واقتسام الأسلاب والمغانم .

ولكن هذا التراث العربى ورسالته فى التضامن من أجل الجهاد أصيب بلطمة قاسية من نتائج الانقلاب التركى الذى قام به الخليفة المعتصم . ففى الوقت الذى نهضت فيه القاهرة بالدفاع عن أرض الوطن العربى ضد الروم ، كانت القبائل التركية الضاربة فى بلاد ما وراء النهر قد دخلت فى حركة جديدة قوامها ظهور الأطماع فى نفوس زعمائها لتأسيس سلطان سياسى لهم على أنقاض مجد العرب ، الذى سلبه من قبل قادة المعتصم الأتراك وسلالتهم . وحمل زعيم إحدى القبائل التركية ، ويدعى سلجوق عبء تحقيق هذا الحلم الجديد . فجاء على رأس قبيلته البدوية من برارى القرغيز فى التركستان ، واستقر بالقرب من بخارى على أطراف الدولة الإسلامية فى مطالع القرن العاشر الميلادى . وهناك اعتنق هو وأتباعه الدين الإسلامى على المذهب السنى ، ثم بدأ يعدهم للزحف على العراق ، وهو أول اقليم قريب لهم من بلاد الشرق العربى .

واستطاع أحد أحفاد سلجوق ، وهو طغرل ، الزحف على العراق فجأة على رأس قبيلة من الأتراك الجفاة ، ودخول بغداد دخول الغزاة الفاتحين ، لا دخول العبيد الذين سبق أن

جلبهم الخليفة المعتصم . وبادر الخليفة العباسي إلى تسليم ما في يده من أشباح السلطان لهذا القائد التركى الجديد ، وقنع لنفسه برسوم الخلافة الشكلية . غير أن الشرق العربى بدأ يشهد مع سلطان السلاجقة الأتراك أول سلسلة طويلة من الكوارث الجسيمة . ذلك أن السلاجقة عمدوا إلى استغلال الخلافات المذهبية بين الخلافة العباسية السنية ، والخلافة الفاطمية الشيعية لبسط سلطانهم على سائر أرجاء الشرق العربى . فاتخذوا من الخلافة العباسية السنية الخاضعة لمشيئتهم ستارا يحققون من ورائه مآربهم التوسعية ، وذلك بالقضاء على الخلافة الفاطمية التى كانت تبسط سلطانها على مصر والشام وبلاد العرب .

ودخلت جيوش السلاجقة الشام واصطدمت مع الجيوش الفاطمية سنة ١٠٧٠ م ، ولكن السلاجقة عجزوا على الرغم مما أحرزوه من نصر أولى عن القضاء على الفاطميين ، واضطروا إلى ترك الشام ، ولم تتمخض تلك الحروب إلا عن إنهاك قوى الفريقين ، وإضاعة هيبة الخلافة الفاطمية خاصة باعتبارها الحارس على أطراف الشرق العربى ضد الروم . وزاد فى خطورة تلك النتائج على مصائر الشرق العربى أن السلاجقة استطاعوا فى السنة التالية لهجومهم على الشام هزيمة

جيوش الروم عند منزكرت بآسيا الصغرى (١٠٧١ م) ، وقتل امبراطورها نفسه . فكانت تلك الحادثة الأخيرة سبباً فى استنجاد سلطات الروم بقوى غرب أوربا لمساعدتها على دفع الخطر السلجوقى الكامن فى بلاد الشرق العربى . ولقيت استغاثات الروم تلبية لدى أهل غرب أوربا ، وعلى رأسهم البابوية وحكامهم الإقطاعيون، لأنهم وجدوا فى إرسال الجيوش إلى الشرق العربى ، فرصة ذهبية لانتزاع الأراضى المقدسة المسيحية فى فلسطين ، فضلا عن تكوين إمارات لهم على أرض تلك الجهات الغنية بالثروات . وامتزجت تلك الأطماع الأوربية كلها فيما هو معروف بالحروب الصليبية ، التى جعلت من الشام وشمال العراق ميدانا لها ، وانتهت ادوارها الأولى بتأسيس أربع إمارات صليبية فى قلب الشرق العربى وهى : إمارة الرها وانطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس .

الإفاقة العربية فى مصر

توحيد الجبهة العربية :

وكان السبب فى سهولة تأسيس الصليبيين لإماراتهم الأربع بالشام وشمال العراق ، ضعف الخلافة الفاطمية بسبب دفاعها

عن نفسها ضد السلاچقة ، ثم تفكك سلطان السلاچقة نفسه بعد أن فشلت أطماعهم التوسعية . فلم تعد توجد أية قوة فى الشرق العربى تصلح لأن يلجأ إليها عرب الشام ، أو تقدر على حرب الصليبيين . إذ حدث أن ذهب وفد من عرب بيت المقدس بعد سقوطها فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٩ م إلى بغداد ، وذرفوا الدمع الغزير لاستدرار عطف السلطات بها ومساعدتها . ولكن الخليفة العباسى المستظهر أحالهم إلى صاحب السلطة الفعلية فى العاصمة وهو بركيا روق السلچوقى ، الذى لم يكن يفهم إذ ذاك غير احتساء الخمر ، ولا يعى مقدار الخطورة التى أحاطت بالوطن العربى . ثم توالى حضور الوفود من مدن الشام إلى بغداد تستغيث من الصليبيين ، واستبد الغضب بوفد حلب خاصة عندما وجد أولى الأمر صم الأذان ، وحطم المنبر وعطل صلاة الجمعة فى المسجد . ولكن ذهبت كل هذه الصيحات هباء لأن السلاچقة فى بغداد قد بطشوا بكل مظهر من مظاهر العروبة فيها ، وحجروا على الخلافة بها .

وكان لابد من انتقال الدعوة إلى إنقاذ العروبة من بغداد إلى أى مكان آخر بعيد عن سلطان السلاچقة . وبدأت الدعوة الجديدة فى الموصل حيث أحس صاحبها عماد الدين زنكى بخطر

الصليبيين القريبين منه فى إمارة الرها . ثم تابع تلك الدعوة من بعده ابنه نور الدين الذى اتخذ من حلب مركزاً لجهاد الصليبيين ووسيلة لتمزيق تجمعاتهم بالشام . وأخيراً بدأت الأحداث تمهد لانتقال الدعوة إلى مصر بعد أن استبد الضعف فيها بالخلافة الفاطمية ، وطمع الصليبيون فى بيت المقدس فى الاستيلاء على تلك البلاد . وبادر نور الدين بإرسال جيوشه وعليها خيرة قواده ، ومن بينهم صلاح الدين للدفاع عن مصر ، وضمها إلى الجبهة العربية. ونجح صلاح الدين فى إقصاء الصليبيين عن مصر ، ثم ساعدته التطورات على أن يكمل الرسالة الخاصة بتوحيد الجبهة العربية ، إذ انهارت الخلافة الفاطمية تماما ، وصار هو السلطان فى مصر ، كما توفى نور الدين فى حلب ، وأصبح الشام موالياً له كذلك ، فضلا عن مدن شمال العراق التى انضمت إلى الصفوف العربية لمحاربة الصليبيين . وأعلن الخليفة العباسى فى بغداد مساهمته بالشىء الذى يقدر عليه وهو إغداق البركات على تلك الجبهة العربية .

واستطاع صلاح الدين بعد المجهود الشاق الذى بذله فى توحيد الجبهة العربية أن يجعل الصليبيين بالشام بين شقى الرحا ، وأنزل بهم أخيراً هزيمة فادحة فى وقعة حطين

سنة ١١٨٧م . وكانت تلك الوقعة التى انتصر فيها صلاح الدين خير مثال لما يمكن أن يحققه اتحاد العرب، إذ قال عنها المؤرخون المعاصرون من الأوربيين الذين شهدوا عنفها ، إنها بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية . ولم يكن فى هذا القول شىء من المبالغة ، إذ حشد الصليبيون زهرة جندهم فى حطين ، ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين لنفسه ، معتمداً على الجبهة العربية الجديدة وقوتها . فسلمت له مدينة بيت المقدس فى أكتوبر سنة ١١٨٧م بعد حصار دام أسبوعا واحداً . ثم استمر صلاح الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ اللاذقية شمالا وحصن الكرك جنوباً ، ولم تأت سنة ١١٨٩م حتى سقطت معظم المدن الصليبية ، وبدا كأن الصليبيين سيخرجون جميعاً من الشام .

غير ان مسرح الحروب الصليبية لم يلبث أن انتقل من الشام إلى مصر نفسها ، حيث أدرك الصليبيون أن السر فى انتصارات صلاح الدين يرجع إلى الإمدادات والجيوش التى جاءت من مصر ، التى صارت مركز الإفاقة العربية وحاملة لواء الجهاد فى سبيل العروبة . ووجه الصليبيون بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى حملاتهم على مصر نفسها ، وحرمانها من مد يد

المساعدة للجيوش العربية فى حربها ضد بقايا الصليبيين بالشام. ولكن خلفاء صلاح الدين فى مصر أثبتوا مقدرة فائقة فى الدفاع عن هذا الجزء الهام من الشرق العربى، وجعلوا منه مقبرة للغزاة. ذلك أن الصليبيين نزلوا فى دمياط سنة ١٢١٨م عن طريق فرع النيل الشرقى، وعمدوا إلى اتخاذها قاعدة للزحف منها على داخل البلاد.

وأسرعت الجيوش المصرية لدفع هذا الخطر الجديد، وأحدقت بالصليبيين الذين انتشروا إذ ذاك فى شمال الدلتا، ثم فتحت الجسور والسدود، وكان الوقت إذ ذاك موسم الفيضان، حتى وجد الصليبيون أنفسهم فى معزل، بعضهم عن بعض، واضطروا إلى التقهقر إلى قاعدتهم فى دمياط. ولكن القوات الصليبية عجزت عن العودة إلى دمياط، حيث عزلتهم مياه الفيضان عنها، ولقوا هزيمة فادحة على أيدى المصريين، واضطروا إلى الجلاء التام عن الأراضى المصرية سنة ١٢٢١م بلا قيد ولا شرط.

وتعتبر هذه المرحلة الجديدة فى تطور الحروب الصليبية من أشد الأوقات حرجا فى تاريخ الشرق العربى كله. ذلك أنه عاصر هجوم الصليبيين على مصر تجمع القبائل الأسيوية المعروفة

بالتتار تحت زعامة جبارة ، هيأت لها تحطيم سور الصين العظيم ، والسيطرة على تلك البلاد العريقة فى الحضارة ، ثم الاندفاع غربا مكتسحة ما يصادفها من القوى اكتساح السيول الجارفة للحصى ، حتى وقفت تستعد لتحطيم السور الأمامى كذلك المسئول عن سلامة الشرق العربى وحضارته .



ظهور التتار

موطن التتار :

عاش التتار فى الهضبة الآسيوية الشاسعة ، التى تمتد من أطراف الصين إلى أواسط آسيا ، وتشمل جغرافيتها عددا من خطوط الطول والعرض ، ولذا صارت تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس ، وتغلب عليها الصفة السهوبية ذات المراعى المتغيرة . ومن ثم احترف التتار الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفا حربياً سريعاً . ولم ترغب قبائل التتار فى الاستقرار أو بناء المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة ، بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الإسلامية .

وفى وسط هذه البيئة القاسية شبت قبائل التتار وترعرعت على أعمال العنف والتحايل على أسباب العيش ، واكتساب صفات خلقية واجتماعية شاذة جعلتهم أخطر أساتذة العالم الذين

عرفهم التاريخ فى ميدان التخريب والتدمير. ففى فصل الشتاء القارس لم يكن أمام التتار إلا سلب بعضهم بعضاً ، وسرقة ما تستطيع أن تمتد إليه أيديهم من موارد الرزق الشحيحة ، وقتل من يعترض سبيلهم . وكان الغذاء المستطاع فى تلك الفترة هو اللبن المحفوظ فى قرب من جلود الماعز . وعندما يحل فصل الربيع ، وتبدأ الحشائش تكسو المراعى يخرج الرجال للصيد ، وينطلق الأطفال مقلدين الآباء جريا وراء الذئاب والجرذان لصيدها ، على حين يشتغل النساء بصناعة أوتار القسى والدروع من جلود البقر وتجهيز الرماح من العظام . وصار طابع الخشونة يسود كل مظاهر حياة التتار حتى فى لعبهم وهزلهم . فكان اللهو عندهم عبارة عن عقد مباريات للسباق على ظهور الخيل ، والمبارزة بالسيف والمصارعة العنيفة ، ثم الإفراط فى الشراب ، وتبادل أقذع ألوان السباب وأقذر الألفاظ .

وانعكست مظاهر البيئة كذلك فى حياة التتار الدينية ومعتقداتهم . فانفردوا من دون الجماعات الوثنية بعبادة قوى الشر من الجن والشياطين ، ولا سيما الآلهة الشريرة ، التى كانوا يقدمون لها القرابين والضحايا ، لما لها من سلطان وقدرة على إنزال الأذى ، كما عبدوا أيضاً أرواح أجدادهم القدامى ، لاعتقادهم

أن لها أثرا كبيرا فى حياة الأعقاب والأبناء . وخضع التتار فى ممارسة طقوسهم الدينية إلى الشامان ، وهم أشبه بالقسس، ولكن ممن اشتهروا بالسحر والقدرة على ذكر النبوءات[1] .

جنكيز خان أو غضب الله :

ولم تبدأ قبائل التتار تاريخها الأسود إلا حين لمّ شملها أحد زعمائها ، المعروف باسم چنكيز خان . وكان يطلق على هذا الزعيم وهو طفل اسم تيموچين أى الصلب المتين ، حيث ولد مكتظا قوى البنية . وشب وسط قبيلته المعروفة باسم « التمرجى »

---

(١) يتوارد ذكر التتار والمغول كثيراً فى المراجع التاريخية بمعنى واحد ، غير أن المؤرخين العرب القدامى من أمثال ابن الأثير وأبى الفدا وغيرهما آثروا إطلاق كلمة التتار على فتوحات المغول التى قامت فى تلك الفترة التى يعالجها هذا الكتاب ، أى فى القرن الثالث عشر الميلادى . ويرى البعض أن كلمة المغول مشتقة من لفظ محلى معناه الشجاع ، على حين يرى البعض الآخر أنها مشتقة من اسم زعيم ظهر بين تلك القبائل فى القرن العاشر الميلادى . ومن ثم فضلت كلمة التتار جرياً وراء المصطلح التاريخى العربى ، فضلا عن أنها ما زالت تستخدم إلى الآن للدلالة على سلالة هذا العنصر فى الجهات التى استقرت بها فى آسيا وأوربا .

التى اشتهر أفرادها من بين التتر بالشر والغدر . وتعلم تيموچين فى صباه ما يتعلمه كل طفل من التتار ، وهو إجادة الصيد ، والاشتراك فى حلبات سباق الخيل والمصارعة وقذف السهام ، كما تعود شظف الحياة وتحمل آلام الجوع والحرمان بضعة أيام . غير أن تيموچين تفوق على أقرانه برجاحة العقل والمهارة فى رسم الخطط وتدبير الأمور ، وانفرد من دونهم بفكرة خطيرة ، خلاصتها أن الحياة للقوى وحده لا للضعيف .

وزادته تجارب الحيـاة وأحداثها إيمانا بنظريته ، إذ توفى والده ، وهو شيخ القبيلة ورمز عزتها نتيجة سُم دسه له أحد أعدائه . فلم يلبث أفراد القبيلة أن انفضوا عن تيموچين ، الذى كان إذ ذاك فى كنف أمه ورعايتها ، وانتخبوا زعيما آخر عليهم ، حيث قال أحدهم فى الاجتماع : « لا حاجة للقوم إلى امرأة ضعيفة وأطفال مساكين » . وكان هذا القول هو الشرارة التى أشعلت جذوة النشاط عند تيموچين ، والهاتف الذى ردده فى كفاحه فى سبيل سيطرته على جيرانه . فأخذ تيموچين يعمل على جمع الأنصار حوله ، على حين شجعته أمه أثناء ذلك بإشعال نار الحقد والكراهية على أعدائه الذين سلبوا منه سلطانه .

وكان أخطر عدو واجهه تيموچين فى صدر جهاده هو زعيم قبيلة التايدچوت المجاور له ، إذ عمد هذا الزعيم إلى إثارة الخصوم حول تيموچين ، وتعضيدهم فى نضالهم ضده بالمال وشراء ذممهم . ولما وقع تيموچين أسير هذا الزعيم لقى إهانة بالغة ، حيث وضع النّير فى عنقه ، إمعاناً فى إذلاله . وصارت نفس تيموچين بذلك تطفح بالكراهية والبغضاء على كل ما حولها ، ولا يراودها إلا الانتقام ، وانتزاع السلطان مهما كلفه ذلك من ثمن . وبدأ تيموچين يحقق سياسته حين استطاع الهرب من الأسر ، وعاد إلى قبيلته . إذ استرد مكانته فيها سريعا نتيجة قيامه بسلسلة من الإغارات العنيفة ، أرهبت أعداءه ، وجعلت الآخرين يلجأون إليه طلباً للحماية .

ثم نظر تيموچين بعد ذلك إلى ما جاوره من القبائل ، وصمم على إخضاعها ، فانتصر على قبيلة التايدجوت ، التى لقى من زعيمها كل مذلة وهوان ، وصار صاحب الكلمة العليا على منطقة شاسعة تمتد شمال الجوبى ، حيث مضارب عدد كبير من قبائل التتار . وانتقل بعد ذلك إلى إخضاع سائر جيرانه من القبائل الأخرى ، متبعاً فى سبيل ذلك شتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، ومعتمدا على ما أوتى من دهاء ، وقدرة على

تحطيم الخصوم . فجرت عادته بعد النصر على جمع رؤساء القبائل وإعدامهم ، وضم المحاربين منها إلى جيشه ، والاستيلاء على جميع أملاكها .

ورأى تيموچين بعد ذلك ضرورة جمع هذا العدد الهائل من قبائل التتار تحت زعامة واحدة . فأمر بجمع شيوخها أى الخانات فى مؤتمر عام يسمى : « القوريتلاى » ، وعرض عليهم اختيار واحد منهم يكون سيد الجميع . وسرعان ما انتخب القوريتلاى تيموچين سنة ٦٠٣ هـ ، ١٢٠٦ م ليكون ذلك السيد الأعلى ، وأغدق عليه لقبا جديداً هو چنكيز خان ، أى أعظم الحكام ، أو إمبراطور البشر كله . وصار هذا اللقب الجديد عنواناً على ما اقترفه التتار فى حركاتهم التوسعية من تخريب وتدمير ، كما أصبح اسم چنكيز خان دلالة على غضب الله إذا نزل بأى أرض أو حلّ فى أى قطر من الأقطار .

الياسا — أى دستور التتار

وعلى الرغم مما وصل إليه چنكيز خان من مركز رفيع ، فإنه لم ينس مطلقا التعاليم التى تلقنها فى صباه ، وظلت هى المحور الذى دارت حوله مشاريعه لتنظيم الجماعات البشرية الهائلة

التى خضعت له ، وإعدادها لتحقيق ما جبلت عليه نفسه من حقد وحب للانتقام. فقال مرة : إن أسعد الأوقات عنده هى التى يحطم فيها قوى أعدائه ويطاردهم ، ويستولى على ممتلكاتهم ويرى دموع الألم تتساقط من أعين نسائهم وأطفالهم ، وهو الوقت الذى يستطيع فيه أن يركب خيولهم ويمتلك بناتهم ونساءهم .

وكان چنكيزخان يتطلع إلى جيرانه من الإمبراطوريات الكبرى محاولا رسم خطة للنيل منها وهدمها . فقامت شرق بلاده إمبراطورية الصين ذات الحضارة العريقة ، وغرباً إمبراطورية الخطا ، التى امتدت من مهد التتار فى صحراء جوبى إلى نهر سيحون على منطقة الأطراف للدولة الإسلامية ، ومن هضبة التبت إلى سيبيريا .

ولم ينس چنكيزخان وهو يتطلع إلى تلك الآفاق الواسعة ما استمع إليه وهو فى صباه من تعاليم شيخ القرية ، الذى قال له : «إن بلادنا مهما اتسعت رقعتها فلن تبلغ جزءاً من مائة من أرض الخطا ، أما السر الذى جعلنا قادرين على العيش إلى جوار تلك البلاد حتى الآن ، فهو كوننا قوم رحل ، نحمل متاعنا وزادنا أينما توجهنا ، وقد أكسبتنا الظروف خبرة حربية واسعة ، فنحن إذا تمكنا غزونا وغنمنا ، وإذا عجزنا توارينا واختفينا .

أما إذا بدأنا نشيد البلدان ونقيم المدن تغيرت عاداتنا وطباعنا القديمة التى توارثناها عن أسلافنا الأمجاد ، ولن تقوم لنا بعدها قائمة . ولاتنس يا بنى أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى لين الخلق وتحبذ الرقة والهدوء ، مع أنه لن يسود البشر غير المقاتل القوى » .

لقد صارت تلك التعاليم التى تلقنها چنكيزخان هى العناصر الأساسية التى احتوى عليها الياساق ، أى الدستور الذى وضعه للتتار عقب انتخابه سيداً أعلى عليهم . فعبر چنكيزخان عن الهدف الأول للياساق قائلا لبنى جلدته : « فليساعد الواحد منكم الآخر ولنقض على بقية الأجنـاس » . واقتضى تحقيق الشطر الأول من هذا الهدف وضع قواعد تـكفل التعاون بين التتار وحثهم على التقشف ، ثم تدريبهم تدريباً حربياً خشنا فى نفس الوقت يؤهلهم لتنفيذ الشطر الثانى من الهدف السالف ، وهو القضاء على سائر الأجناس الأخرى .

أما من حيث التعاون فقد قام على أساس تفانى الفرد فى سبيل المجموع ، وعدم الاعتراف بأى حق للمرء فى حريته الشخصية . فنص الياساق على « ألا ينفرد أحد بأكل شىء وغيره يراه ، بل عليه أن يشركه معه فى أكله ، ولا يجوز أن يتمتع أحـد

بالشبع دون أصحابه ، بل يقسم الطعـام بالتساوى ، ولا يجوز أن يتخطى أحد ناراً أو مائدة أو طبقا يؤكل عليه ، ومن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويؤاكلهم من غير إذنهم ، وليس لأحد منعه . ولا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ، حتى ولو كان أميرا » . فهذا النص السالف يكشف تماما عن روح هـذا المجتمع التعاونى الشاذ ، الذى لا يعترف بمراعاة العدالة أو يحفظ للمرء ثمرة كفاحه الخاص . وفى الوقت نفسه أوضح طبيعة الغدر المتأصلة فى نفوس هذا المجتمع ، وبين أنه مرض فطرى لايمكن استئصاله .

واعترف الياساق بالإباحية حيث أباح للرجل « حق شراء زوجة ، وله أن يتزوج من أختين ويتخذ أكثر من محظية » ، كما ألزم التتار عند « رأس كل سنة بعرض سائر بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده » . ولاشك أن هذا النص يهدم كيان الأسرة ، التى هى عماد الاستقرار ، ويجعل من التتار قوما لا يعترفون بأى مقاييس حضارية أو معايير للمدنية .

وحرص الياساق بعد ذلك على حرمان التتار من الرفاهية وحثهم على التمسك بالتقشف التام ، حيث جاء فيه « ويحرم

غسل الثياب ، بل يجب أن تلبس حتى تبلى ، وجميع الأشياء طاهرة ، وليس ثمة شىء نجس » . وأصبح التتار بذلك وحدة لها نظام خاص ، يرعاه جنكيزخان نفسه ، ويخضع الكل بلا استثناء لتعاليم هذا النظام الصارم ، حتى « إن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فإنه يلقى نفسه إلى الأرض بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه » .

وانتقل الياساق بعد ذلك إلى إعداد التتار جميعا إعدادا حربيا ، وجعلهم كلهم أداة هائلة للتدمير واكتساح من يقف فى سبيلهم من الشعوب الأخرى . فكان فصل الشتاء القارس ، والذى حدد الياساق ميعاده بهطول الجليد ونهايته بظهور الحشائش يخصص لاختبار قوى المحاربين ، حيث تتجلى شجاعتهم وتظهر صفات الجلد عندهم فى مطاردتهم للظباء وحمير الوحش والأرانب البرية ، واتخاذ ذلك كله مادة للتدريب الحربى . ثم قسم التتار إلى جماعات يتألف منها الجيش ؛ منها الفرقة أو الطومان وعددها عشرة آلاف ، ومنها مجموعات أكبر تضم عدة فرق وتوضع تحت قيادة الأرخون .

وذكر الياساق جميع التعاليم التى يجب على المقاتل من التتار

اتباعها ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها كذلك ، فى دقة تامة ، حتى صارت عجلة التتار الحربية قوية الانطلاق ، تشبه فى حركاتها دوى الزلازل والبراكين أو انهمار السيول الجارفة من أعلى قمم الجبال . فعند إعلان النفير يتسلم كل جندى أسلحته من الضابط المنوط به حفظها ، على حين يوجد ضابط آخر مسئول عن فحص تلك الأسلحة قبل المعركة . واشتملت أسلحة الجيش على عدة أنواع حسب طبيعة المحاربين ، فالفرق الأمامية المعرضة للأخطار كانت ترتدى دروعا كاملة وتحمل السيوف والحراب ، وتغطى الخيول التابعة لها بدروع تناسبها كذلك . أما الفرق الخلفية فلم يستخدم أفرادها سوى القوس والنشاب لأن طبيعة عملها تتطلب سرعة الحركة والخفة والانتقال من مكان إلى آخر لمناورة العدو والعمل على تشتيت شمله . وكان هناك خلاف القوس والنشاب آلات تسمى قاذفات السهام ينطلق منها أكثر من سهم واحد فى الوقت نفسه ، وكذلك آلات لقذف اللهب وإشعال الحرائق فى المدن ، هذا عدا المجانيق وآلات الحصار الأخرى .

وكان الجندى من التتار مسئولا عن سلاحه وسلامة أسلحة زملائه كذلك ، فجاء فى الياساق : « ومن وقع حمله أو قوسه

أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة القتال وكان وراءه أحد فإن عليه أن يترجل ويناول صاحبه ما يسقط منه ، فإن لم يفعل قتل » . وكان المقاتل من التتار يسير حاملا معه سلاحه وزاده وكل شيء يحتاج إليه في تنقلاته ، فإلى جانب السلاح يحمل الآلات اللازمة لشحذه والأواني الفخارية لطهى الطعام وآلة حديدية لحفر الأرض وكيسا من الجلد يضع فيه ملابسه ، ويستخدمه لعبور الأنهار أشبه بأطواق النجاة في الوقت الحاضر ، وخيمة تنصب عند نهاية كل مرحلة من مراحل المسير ، هذا إلى جانب الإبرة والخيط وغيرها من المطالب الصغيرة والدقيقة .

ولم يأخذ الجندى من التتار شيئا من التموين ما عدا قربا من اللبن ، ويعتمد فيما عدا ذلك على ما يستطيع سلبه ونهبه من الأعداء ، وإن لم يجد شيئا ففي قدرته البقاء عشرة أيام متتالية دون أن يتناول طعاما ، وإن اضطرته قسوة الرحلة إلى البحث عن شيء يمسك به رمقة ، عمد إلى قطع شريان من شرايين خيوله ، يمتص منه ما يسد جوعه ثم يربط الشريان ثانية . وكانت الطريقة التي اتبعها التتار لأكل اللحوم مليئة بالوحشية ، فنص الياساق على « أن الحيوان تكتف قوائمه ويمزق قلبه

إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، وإن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين ذبح » .

وعلى الرغم من كثرة جند التتار ، فإنهم ساروا فى المعركة وفق تعاليم دقيقة تكفل لهم النصر والابتعاد عن الفوضى والارتباك . فكان جنكيزخان يضع على رأس كل جيش قائداً يعرفه شخصياً ويثق به ، وغالباً يكون من أبنائه أو أبناء الأسر الارستقراطية المقربة له ، وصارت الطاعة العمياء أمراً واجباً على الجميع ، وعقاب من يخالفها قاسياً جداً ، حتى إن الجندى أو الضابط المذنب لا يقتل وحده فحسب ، بل تقتل أيضاً زوجته وأولاده . ونصت تعاليم الياساق على الخضوع التام للقائد العام حتى بعد النصر . فكان « يعاقب بالموت كل من يشرع فى نهب العدو قبل أن يصدر القائد العام الأمر بذلك ، على أن يصبح لكل جندى نفس الحق الممنوح للضابط بمجرد صدور هذا الأمر ، ويحق للجندى الاحتفاظ بما استولى عليه من أسلاب ، بعد تقديم نصيب القائد » .

القوريلتاى — المؤتمر العام

وكان وضع خطط القتال هو أهم عمل فى حياة التتار ، الذين لم يعرفوا شيئا غير التدمير والهجوم على ما جاورهم

من بلاد . و بلغ من اهتمامهم بخطط القتال أنهم كانوا يدرسونها في مؤتمر عام هو القوريتلاى ، يجتمع فيه كبار رجال الجيش تحت رئاسة جنكيز خان نفسه ، وفيما بعد تحت إشراف أولئك الذين خلفوه على عرش التخريب والفساد . ودأب التتار على عقد القوريتلاى حيث يوجد القائد العام ، أما إذا كانت المسألة تخص شئون الحكم والإدارة ، مثل انتخاب خليفة للخاقان أى الحاكم الأعلى ، وهو اللقب الذى حمله جنكيز خان نفسه ، فإن المؤتمر العام كان يعقد فى « قره قورم » أى الرمال السوداء ، وهو اسم عاصمة التتار ، الذين ظلوا على الولاء لها ، على الرغم من اتساع فتوحاتهم . وكان من السهل عقد القوريتلاى فى سرعة ودقة بسبب نظام « اليام » وهو أشبه بالبريد فى الدولة الإسلامية . فكانت الرسل عند التتار أشبه بأصحاب البريد وعماله عند المسلمين يركبون خيولا خاصة ، ويقطعون بها مسافات تقرب فى اليوم من خمسين ميلا ، يحملون الأخبار وكذلك المطلوب استدعاؤهم . وكان على رأس كل مرحلة معسكر دائم به بضعة من الخيل ، ومعها عدد من الفرسان لحراستها ، وجماعة من الغلمان لخدمتها ، هذا فضلا عن وجود خيام فى هذا المعسكر لإيواء النازلين .

وبعد أن يبلغ رجال « اليام » أو عمال البريد طلب استدعاء كبار رجال الجيش ينعقد الجمع فى سرادق خاص ، ويحضره الجميع وهم فى أبهى زينة . ونص اليساق على أن حضور هذا المجلس أو القوريتلاى أمر إجبارى ، وعقوبة من يتخلف عنه هو الإعدام بأقسى الطرق . فذكر جنكيزخان فى اليساق : « إن كل من تحدثه نفسه بالبقاء فى خيمته بدلا من المجىء إلى المؤتمر للاستماع إلى أوامرى فمصيره الصخر يلقى فى قاع البحر أو السهم فى وسط الغاب » وكانت تعرض على المجتمعين خطة الغزو والبلد المقصود تدميرها أو الهجوم عليها ، ويشترك الجميع فى المناقشة وبحرية تامة . ومن ثم اتصفت خطط التتار الحربية ، التى وضعت فى القوريتلاى بالدقة وعنفها ، وحسن تنفيذ القائمين عليها . ذلك أنها قد درست دراسة مستفيضة ، وأخذت وقتاً كافيا لإعدادها . فجرت عادة التتار على إحكام خططهم حتى يفاجئوا بها عدوهم ، ولا يدعوا له فرصة للإفلات من شباك الموت التى ينصبونها له . هذا فضلا عن بناء تلك الخطط على أدق المعلومات التى يجلبها لهم جواسيسهم المدربون ، والمنتشرون فيما جاور ديارهم من أقطار .

وبعد أن ينتهى القوريتلاى من رسم خطة الغزو يأخذ

« الجرخانات » وهم ضباط التفتيش فى استعراض الأسلحة التى توزع على المقاتلين من المخازن ، والتأكد من حسن استعداد الجند . هذا بينما يقوم نفر آخر من الضباط بعرض الأخبار عن ثروات الجهات المزمع الهجوم عليها وكثرة خيراتها لاستثارة حماسة الجند للقتال . وعلى هذا الاستعداد الحربى الهائل ، وتلك الروح المتعطشة للتخريب والتدمير ، وقفت جحافل التتار تدك السور الأمامى للشرق العربى .



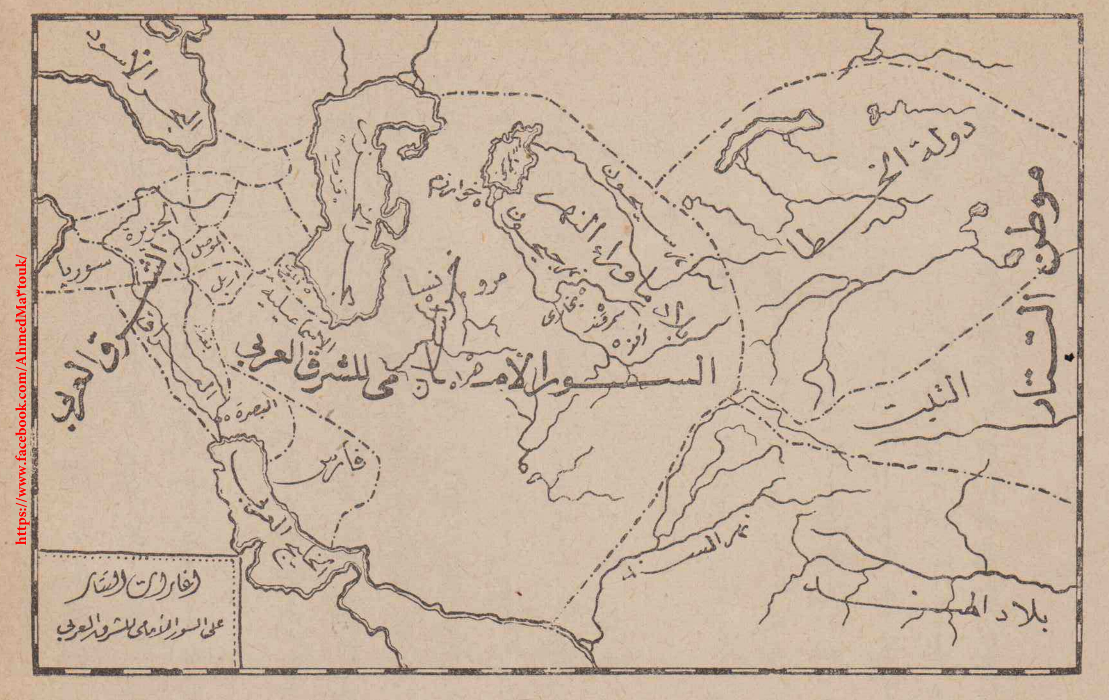
انهيار السور الأمامى للشرق العربى

بلاد ما وراء النهر :

بعد أن فرغ چنكيزخان من إخضاع الغالبية العظمى من التتار لسلطانه ونظم شئونهم فى ظل دستوره المعروف بالياساق أخذ يتعقب القبائل التترية الأخرى التى سبق أن فرت من وجهه وأبت الطاعة له ، مستهدفا القضاء عليها وإبادة أفرادها . ودفعته حملات المطاردة إلى السير غربا حتى اصطدم بالسور الأمامى الذى يحمى بلاد الشرق العربى من خطر القبائل البدوية فى وسط آسيا . وكان هذا السور يمتد فى أرض خراسان بالشمال الشرقى من فارس وفى بلاد ما وراء النهر التى يجرى فيها نهرا جيحون وسيحون ، اللذان يصبان فى بحر أرال . وكثرت فى منطقة هذا السور ولا سيما فى بلاد ما وراء النهر منه المدن العامرة والمواقع الاستراتيجية الهامة التى تؤدى مباشرة إلى إقليم العراق من أرض الشرق العربى . ومن أمثلة ذلك بخارى التى علا صيتها بعلمائها المشهورين

فى الفقه والحديث وسمرقند التى اشتهرت بأسوارها المنيعة وحدائقها النضرة ، وغيرها من المدن الأخرى التى أسهمت فى بناء الحضارة العربية ، وتركت آثارا جليلة تشهد لها بهذا الدور العظيم الذى قامت به .

واهتم الخلفاء منذ عصر مبكر بهذه الجبهة الأمامية ، ولا سيما بعد أن استقرت الأوضاع فيها ، وصارت تكون شطرا هاما من الدولة الإسلامية . فانتدب خلفاء بنى أمية لإدارتها أشخاصا من خيرة رجالات العرب ، ممن اشتهروا بالكفاية الحربية والمقدرة السياسية العالية فى نفس الوقت . ومن أمثال هؤلاء : قتيبة بن مسلم الباهلى ، فاتح بلاد ما وراء النهر ، إذ كشف عن مهارة عظيمة فى كبح جماح القبائل البدوية التى التقى بها خلف نهر سيحون ، وبذل جهودا جبارة فى إقامة المحارس والمسالح لصد إغاراتها المتكررة . ومنهم كذلك الحجاج بن يوسف الثقفى الشهير ، الذى تولى إدارة منطقة الأطراف الشرقية من عاصمة واسط بالعراق ، وأثبت جدارة نادرة فى القبض بيد من حديد على العناصر الخطرة فى تلك الجهات ، وتزويد الحاميات هناك بالإمدادات الدائمة للسهر على المسالك المؤدية إلى الشرق العربى . وأخيراً نصر بن سيار الذى


إغارات التتار
على السور الأمامي للشرق العربي
السور الأمامي للشرق العربي
الشرق العربي
البحر الأسود
سوريا
الجزيرة
الموصل
أربل
البصرة
فارس
خوارزم
مرو
بلاد ما وراء النهر
سمرقند
بخارى
دولة الخطا
التبت
موطن التتار
نهر السند
بلاد الهند

راقب بعين ساهرة الحركات التى بدأت تناوىء العرب فى خراسان ، وكتب إلى خلفاء بنى أميــة باستمرار شارحا لهم خطورة تلك الجبهة فى رســائل تفيض بالدقة والإخلاص .

وتابع خلفاء بنى العباس الأول سياسة الاهتمام بهذا السور الأمامى على الرغم من اعتمادهم على الفرس فى تـكوين الجيش . فقد اشتركت القوات العربية مع الفارسية فى حراسة منطقة الأطراف الإسلامية الشرقية ، وذلك تحت قيادة وإدارة شخصيات من العرب والفرس ، وضعوا مباشرة تحت رقابة الخلفاء ، وإذا ظهر تقصير من أحد أولئك القادة أو أحاطت به الريب أبعد فى سرعة ودون تردد ، حتى تظل تلك الجبهة الأمامية سليمة ، وتؤدى مهمتها على خير وجه .

غير أن الانقلاب التركى الذى أحدثه الخليفة العباسى المعتصم فى بغداد ، تردد صداه فى إدارة هذا السور الأمامى للشرق العربى ، إذ تولى شئون تلك الجبهة عمال من الأتراك ، لم يلبث أن انفردوا بالأمر بعد أن استبد بنــو جلدتهم السلاچقة بالسلطة فى بغداد من دون الخليفة العباسى . ونجم عن هذا التطور إهمال السياسة العربية التقليدية الخاصة بتدعيم السور

الأمامى للشرق العربى ، وذلك أن العمال الأتراك انصرفوا إلى التسابق على الاستقلال بما تحت أيديهم من جهات ، والعمل على توسيع سلطانهم على حساب بعضهم ، ولا سيما على حساب السلاجقة أنفسهم فى بغداد . وظهر من بين أولئك العمال الأتراك حاكم خوارزم ، الذى تولى إدارة إقليم خوارزم بالجنوب الغربى من بحر آرال من قبل السلطان بركياروق السلجوقى المعروف بإهماله مطالب عرب الشام وعدم تلبية استغاثاتهم فى جهادهم ضد الصليبيين . فقد أسس هذا الحاكم لنفسه ملكا فى خوارزم ، توارثه أبناؤه وأحفاده من بعده ، حتى صارت لهم دولة مهابة ، تعرف بالدولة الخوارزمية ، التى بلغت أقصى اتساعها فى عهد علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ — ٦١٧هـ/١١٩٩ — ١٢١٩ م) .

وكانت تلك الدولة التركية الخوارزمية سبب النكبات التى أنزلها التتار بالشرق العربى ، الذى كان يحارب إذ ذاك جيوش الصليبيين ، ويصد هجماتهم عن مصر . ذلك أن علاء الدين محمد خوارزم شاه نسى وسط أطماعه التركية حقيقة الوضع الجغرافى لدولته ، وأنها تشرف على جبهة السور الأمامى للشرق العربى ، مما يقتضى حراسة قوية ضد خطر التتار الذى تجمع على حدود

تلك الجبهة تحت قيادة جنكيز خان نفسه ، وإيقاف هذا الخطر الجديد على الأقل حتى لا يصل إلى الشرق العربى ، وهو مازال منغمساً فى جهاده ضد الصليبيين . غير أن علاء الدين لم يدرك قيمة رسالته ، وسار فى نفس الطريق الذى سلكه أسلافه من الأتراك ، وهو كتم أنفاس العروبة فى العراق ، والسيطرة على مقاليد الأمور فى بغداد من دون الخلافة العباسية المتداعية. وزحف علاء الدين خوارزم شاه على رأس جيوشه فى سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م قاصداً بغداد ، غير أن الوقت الذى اختاره للمسير كان سيئاً ، إذ حلت أشهر الخريف وهو فى الطريق إلى بغداد ، وهبت العواصف كما انهمرت الثلوج على الجند وهم يعبرون إحدى المناطق الجبلية فى شمال العراق ، فأهلك البرد كثيراً من الرجال والدواب ، وسقط الباقون فريسة لقبائل الأكراد المنتشرة فى شمال العراق . ووجد علاء الدين نفسه مضطراً إلى العودة بمن بقى له من الجند قبل أن يصل بغداد ، حيث بلغته الأخبار باستعداد التتار للهجوم على دولته .

جواسيس التتار :

وفى السنة التالية لعودة علاء الدين فاشلا من العراق (٦٠٥ هـ ١٢١٨ م) بدأ التتار يتحرشون به ، ويرسلون جواسيسهم

إلى بلاده جريا على سياستهم الخاصة بدراسة أحوال البلاد التي يزمعون الهجوم عليها . فلم يكد يصل إلى مدينة بخارى حتى قابله ثلاثة من التجار التابعين لدولته كانوا قد خرجوا للمتاجرة في ديار التتار وعادوا محملين بهدايا له من چنكيز خان ، ورسالة كذلك من هذا الخاقان العظيم المخوف جاء فيها قوله لعلاء الدين :

ليس يخفى عليّ عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك . . . . وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات ، وأنت عندي مثل أعز أولادي ، وغير خاف عليك أيضا أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك ، وقد أذعنت لي قبائلهم ، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة ، وأن فيها لغنية عن طلب غيرها ، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبل التردد ، عمت المنافع وشملت الفوائد » . وكانت تلك الرسالة امتهانا لشأن حاكم خوارزم ، إذ حملت إليه التهديد والوعيد ، وجعلته في مرتبة أقل من چنكيز خان حين ذكر أنه بمنزلة الابن ، وليس على قدم المساواة مما يقتضي مخاطبته بلقب الأخ . هذا إلى أن فيها تعريضا بضآلة ملكه إذا قورن بما آل إلى چنكيز خان من بلاد وما خضع له من قبائل . وعلى الرغم من

السخط الشديد الذى أثارته رسالة چنكيزخان فى نفس علاء الدين خوارزم شاه ، فإن حاكم خوارزم أذعن لما جاء فيها من مطالب ، وقبل عقد معاهدة تجارية ، كانت أشبه بفرض ملزم لا سبيل للتخلص منه .

واستغل التتار هذه المعاهدة لإرسال جواسيسهم فى زى التجار ، والحصول على معلومات تفيدهم فى الهجوم الذى بيتوه لدولة خوارزم . وحدث أن ذهب تجار من خوارزم إلى بلاد التتار ، وعند عودتهم بعث معهم چنكيزخان جماعة كبيرة من أتباعه يحملون سلعا محلية لبيعها فى أسواق خوارزم وشراء ما يحتاجون إليه منها . وسارت هذه القافلة التجارية الكبيرة وبصحبتها عدد من عسكر التتار حتى وصلت دولة خوارزم ، عند مدينة أترار على نهر سيحون ، والتى كانت تعتبر مركز التبادل التجارى فى غرب آسيا . وكان يحكم أترار ابن خال علاء الدين ، نظرا لأهمية تلك المدينة من الناحية التجارية والعسكرية كذلك . وقد خشى هذا الحاكم من ذلك الحشد الكبير من التجار والرجال العسكريين ، وأدرك أنهم لم يقصدوا بلاد خوارزم للتجارة ، ولكن للتجسس ومعرفة قوة الجيش فيها ، تمهيدا للإغارة عليها ، على نحو ما هو شائع عن خطط التتار

الحربية . وأمر حاكم أترار بمراقبة التجار ثم بمصادرة متاجرهم وأموالهم وقتل أفراد القافلة .

ولما علم جنكيزخان بأنباء ما حدث لجواسيسه فى أترار ، استبد به الغضب ، وبدأ يستعد للقتال . وفى تلك الأثناء أرسل إلى علاء الدين سفارة كانت السبب المباشر للحرب ، إذ بعث رسولا يطلب من علاء الدين تسليم حاكم أترار ، وإلا فليأذن « بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح » وأجاب علاء الدين بقتل هذا الرسول ، مما حمل جنكيزخان على التعجيل بالهجوم على دولة خوارزم سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م وتدمير السور الأمامى للشرق العربى وسط بحر جارف من الدماء ، لم يلبث أن امتدت تياراته المدمرة إلى بلاد الشرق العربى نفسه .

نقمة الله على الأرض

لقد جلب علاء الدين خوارزم شاه الكارثة الكبرى الثانية التى تضاءلت أمامها الكارثة الأولى التى جلبها أسلافه السلاجقة على الشرق العربى بإثارة الحروب الصليبية . ذلك أن كارثة التتار قد تركت أبشع الآثار فى النفوس ، وتتجلى فى تصوير أحد المؤرخين المعاصرين لها من العرب وهو ابن الأثير فى كتابه

المسمى : « الكامل فى التاريخ » . إذ قال « لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ، ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ، فياليت أمى لم تلدنى ، وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . . ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعاً . . . هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى . . . . فلو قال قائل : إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . . وهؤلاء لم يبقوا على أحد ، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال ، وشقوا بطون الحوامل ، وقتلوا الأجنة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح » .

وبهذا الوصف الدقيق المفزع بدأت جيوش التتار تغير على مدن وحصون السور الأمامى للشرق العربى . ووضع جنكيز خان بنفسه خطة الغزو المرعب ، إذا اختص نفسه بالهجوم على البلاد الواقعة بين نهرى سيحون وجيحون ، على حين قسم

بين أبنائه وقادته الاستيلاء على سائر جهات ذلك السور الأمامى فى خراسان وخوارزم . وفى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م بدأت جيوش التتار تنفذ خطتها فى الاستيلاء على أهم المدن والمعاقل دفعة واحدة . فسقطت أولا مدينة أترار التى حدثت فيها مذبحة جواسيس التتار ، والتى جلبت تلك الويلات العظيمة ، ولم تُجد شجاعة حاميتها شيئاً ، إذ انهارت قوتهـا أمام جحافل التتـار ووقع حاكمها فى أيديهم ، حيث أرسل بدوره إلى چنكيزخان الذى انتقم منه بأن أمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها فى عينيه وأذنيه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

وبسقوط أترار صار مفتاح بلاد ما وراء النهر بأيدى التتار ، الذين تفرقت جيوشهم تحدث أعمالها فيما يصادفها من مدن . وكان جيش چنكيزخان مثلا لوحشية هذا الغزو البربرى ، ونموذجا قدمه بنفسه إلى أتباعه وقادته . فقد توجه إلى مدينة بخارى وحاصرها عدة أيام متوالية حتى عجزت حاميتها عن القتال ، فبعث القاضى رسولا إلى چنكيزخان يعرض عليه تسليم المدينة ويطلب الأمان لسكانها . ولما أجابه چنكيزخان إلى طلبه فتحت أبواب بخارى للتتار . ودخل چنكيزخان المدينة ، وسار أمام مسجدها الجامع ، ودخله وهو ممتطى جواده ، وسأل عما إذا كان

هذا هو قصر السلطان . فلما علم أنه بيت الله : صعد المنبر وصاح بأعلى صوته قائلا : « لقد قطع العلف ، اعطوا الخيل طعاما » . وكانت هذه العبارة هى إشارة من چنكيزخان لجنده بنهب المدينة ، دون اكتراث للعهود والمواثيق . فحمل التتار إلى صحن المسجد عدة صناديق تحوى نسخا كثيرة من القرآن الكريم وداسوها بحوافر خيولهم ، كما أحضروا قرب الخمر والمغنين إلى المسجد ، وأخذوا يشربون ويطربون وكبار رجال المدينة وعلماؤها يمسكون بعنان خيولهم إمعاناً فى إذلال أهل بخارى .

وأمر چنكيزخان بعد ذلك بجمع سكان المدينة وخاطبهم قائلا : « انى نقمة الله على الأرض ، ولا بد أنكم تستحقون العقاب لأن الله ساقنى إليكم » . ثم سلبهم أموالهم وكنوزهم ، وطلب منهم مغادرة المدينة ، لا يحملون معهم شيئا إلا الثياب التى يرتدونها ، أما من بقى من الأهالى فسقط ضحية لمذابح التتار والحرائق التى أشعلوها فى المنازل . ووصف ابن الأثير سقوط بخارى قائلا . « وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبأ ، وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن

لم تغن بالأمس ، وألقوا النار فى البلد والمدارس وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال .

« وزحف چنكيزخان بعد ذلك قاصدا سمرقند ذات الأسوار المنيعة والأبراج القوية ، وقضى يومين فى دراسة حصونها . وفى صبيحة اليوم الثالث بدأ الهجوم عليها ، فخارت قوى الجند وسلموا للتتار ، على حين خرج قاضى المدينة ومعه كبار رجال الدين وطلبوا من چنكيزخان الأمان . ولما أجابهم إلى طلبهم ، فتحت المدينة أبوابها ، حيث دخلها التتار الذين لم يعرفوا للعهود حرمة وأعملوا الذبح فى سكانها » .

ووصف المؤرخ المعاصر ابن الأثير هذا اليوم الأخير من القتال قائلا : « فلما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن يخرج أهله ، ومن تأخر قتلوه ، فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ، ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلتهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبى والفساد ، ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع . . . وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبى » .

وسارت حركة التتار بعد سمرقند فى خطة تهدف إلى مطاردة

علاء الدين حاكم خوارزم الذى آثر الفرار تاركا البلاد . فاندفعت جيوشهم تعبر نهر جيحون ، على حين بقى چنكيزخان نفسه فى بلاد ماوراء النهر يدعم فتوحاته فيها . وعبر التتار هذا النهر بطريقة فريدة تكشف عن قدرتهم على الزحف الكاسح ، إذ حين لم يجدوا سفنا تمكنهم من العبور ، صنعوا أحواضا من الخشب وكسوها بجلود البقر حتى لايتسرب الماء إليها ، ثم وضعوا فيها أسلحتهم وأمتعتهم وألقوا بخيولهم فى الماء وتعلقوا بأذنابها بعد أن شدوا تلك الأحواض إلى أجسادهم « فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره ، فعبروا كلهم دفعة واحدة » . ثم إن جيوش التتار انقسمت بعد عبورها جيحون قسمين أحدهما سار فى أثر علاء الدين ، والآخر زحف على شمال خراسان وهى المنطقة الجنوبية من السور الأمامى لسد كل السبل على حاكم خوارزم الهارب ومنع أية إمدادات قد تأتى إليه .

وتولى قيادة الجيش التترى إلى خراسان ابن چنكيزخان وهو تولوى ، الذى أثبت مقدرة فى ميدان الوحشية لا تقل عن قسوة أبيه ، إذ خرب مدن خراسان تخريباً تقشعر منه الأبدان ، ومن ذلك أنه عامل سكان مدينة « نَسَا » معاملة وصفها أحد

أبنائها العلماء بقوله : « فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين . . . كأنهم قطعان الضانية تسوقها الرعاة ، ولم يمد التتار أيديهم إلى سلب ونهب إلى أن حشروهم إلى ذلك الفضا الواسعة بالصغار والنساء ، والضجيج يشق جلباب السماء والصياح يسد منافذ الهوا ، ثم أمروا الناس بأن يُكَتِّفوا بعضهم بعضا ، ففعلوا ذلك خذلانا . . . فحين كتّفوا جاءوا إليهم بالقوس وأضجعوهم على العدى وأطعموهم سباع الأرض وطيور الهوى ، فمن دماء مسفوكة ، وستور مهتوكة وصغار على ثدى أمهاتها المقتولة متروكة ، وكان عدة من قتل بلسان أهلها ومن انضوى إليها من الغرباء ورعية بلدها سبعون ألفا » .

وفى الوقت الذى كان فيه التتار يسيطرون على معاقل الجزء الجنوبى من السور الأمامى فى خراسان ، اندفعت قواتهم الرئيسية فى مطاردة علاء الدين حاكم خوارزم حتى دخلت طلائعها أرض الشرق العربى نفسه فى شمال العراق ، مدمرة كل ماقابلها من مدن ومظاهر للعمران . فسار التتار أولا إلى مدينة الرى ، حيث بلغهم نبأ اختفاء علاء الدين بها . وكانت البلدة منقسمة على نفسها بسبب الاختلاف بين أصحاب المذاهب الإسلامية الأربعة فيها على تفسير بعض نصوص القرآن . وفتح

قاضى القضاة الشافعى أبواب المدينة للتتار لينتقموا من خصومه . غير أن التتار بعد أن فرغوا من إبادة نصف سكان المدينة انقلبوا على الموالين لهم من أصحاب المذاهب الأخرى وقتلوهم بدورهم ، لأنه لاطمأنينة ولا ثقة بخائن لبلده .

ثم اندفعت جيوش التتار فى إقليم خوارزم مهد الأسرة الحاكمة حتى حوّلته إلى خرائب موحشة ، ودخلت طلائعها مدينة إربل فى شمال العراق نفسه . وهنا بدأ الخليفة العباسى يفيق إلى خطورة هذا الهجوم التتارى الذى امتدت أظفاره إلى دياره نفسه ، وأخذ يعمل على عقد حلف عربى من المدن التابعة لحاكم إربل والموصل وصاحب بلاد الجزيرة فى شمال العراق . غير أن هذا الحلف لم يدخل فى دور التنفيذ العملى بسبب غياب مصر عنه ، وانشغالها بخطر صليبي جديد ، قوامه الحملة الصليبية التى جاء على رأسها ملك فرنسا لويس التاسع لمهاجمة دمياط والانتقام من فشل الصليبين فى السيطرة من قبل على تلك المدينة المصرية . غير أن فكرة الحلف العربى جعلت التتار يعدلون عن مهاجمة العراق ، ولاسيما أنهم لم يعثروا على علاء الدين خوارزم شاه عدوهم الأول ، إذ اختفى هذا الحاكم التعس السيئ الطالع

فى إحدى جزر بحر قزوين حيث لفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو مذهول من مذابح التتار الوحشية .

وعادت الجيوش التترية مرة أخرى بعد تدميرها السور الأمامى للشرق العربى حيث التقت بقائدها الأعلى جنكيزخان فى سمرقند . وكان هذا القائد المرعب قد سيطر على سائر معاقل بلاد ماوراء النهر ، تاركا بها من الفظائع مايصلح ذكرى لسائر أعمال التتار جميعها فى بلدان السور الأمامى للشرق العربى . لقد حدث فى مدينة ترمذ أن امرأة من أهلها أرادت أن تفتدى نفسها من التتار بإعطائهم جوهرة ثمينة كانت تملكها . ولما جاء دورها وطلب منها أحد جنود التتار الجوهرة التى ذكرت ملكيتها لها قالت إنها ابتلعتها فى جوفها . فشق التتار بطن المرأة وأخرجوا الجوهرة من جوفها . ولم يلبث أن انتشر هذا الخبر سريعا بين سائر التتار الذين ظنوا أن السكان جميعا قد أخفوا الجواهر فى بطونهم . ولذلك أمر جنكيزخان بشق جميع بطون الأحياء والموتى للبحث عما قد يكون بها من جواهر .

وفى شتاء سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م التقى جنكيزخان فى سمرقند بقادة جيوشه بعد أن دمرت أعظم سور يقف فى طريق

التتار إلى الشرق العربى ، وسار بهم جميعاً فى مطلع ربيع العام التالى (٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) إلى عاصمته قره قورم ؛ وفى الطريق التقى بحفيده هولاكو ، الذى كان إذ ذاك فى التاسعة من عمره ، وذكر له من أخبار الشرق العربى وتدميره للسور الأمامى له ما أثار فى نفس هذا الحفيد روح التخريب الكامنة بالفطرة فى نفوس التتار ، وحمّله متابعة رسالة فى تدمير أرض الشرق العربى نفسه .



التتار فى العراق

دسائس الخوارزميين :

بعد أن حطم التتار السور الأمامى للشرق العربى عادوا إلى عاصمتهم قره قورم ، كى ينظموا صفوفهم مرة أخرى استعدادا للهجوم على بلاد الشرق العربى نفسه . ذلك أن سياسة التتار جرت على ألا تتعدى أعمالهم الحربية الخطط التى سبق دراستها واتفقوا على تنفيذها ، مهما تبدلت الظروف فى صالحهم . فكانت تغلب عليهم طبيعتهم الرعوية التى يسودها الحرص الشديد ، والاستعداد الدقيق قبل الهجوم على الفريسة ، إذ الحرب فى نظرهم أشبه بحملات الخروج للصيد والقنص ، وإحكام الشباك حتى لا يفلت منها الصيد الثمين . وانسحب التتار من كل بلاد الدولة الخوارزمية فيما عدا أرض ما وراء النهر لأنها المفتاح الذى يوصلهم إلى الشرق العربى ، هدفهم المنتظر .

غير أن التتار تخلوا مؤقتاً عن استعدادهم الحربى بعد عودتهم بقليل بسبب موت چنكيزخان نفسه سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ،

وانشغلوا بمشكلاتهم الداخلية ، واختيار خلف يصلح لملء الفراغ الكبير الذى تركه زعيمهم الأول . وانتهز أبناء علاء الدين خوارزم شاه هذه الفرصة ، وخرجوا من مخابئهم ، وهرعوا إلى بلادهم التى تركها التتار ، يستردون فيها سلطانهم . واستطاع أحد أولئك الأبناء وهو جلال الدين منكبرتى أن ينفرد بالسلطان فى خوارزم مرة أخرى ، ويعمل جاهداً على استرداد هيبة دولته ومكانتها . ولكن هذا الحاكم التركى أثبت جهلا تاما بالأوضاع والملابسات الزمنية التى أحاطت بدولته الجديدة ، وافتقاره إلى الكياسة والفطنة الواجب توافرهما فى معالجة الموقف الدقيق الذى نجم عن إغارات التتار وتدميرهم للسور الأمامى للشرق العربى .

وكان الموقف يقتضى من جلال الدين منكبرتى استرداد بلاد ماوراء النهر ، والتتار فى شغل شاغل بمشكلاتهم الداخلية ، كى يؤمن ظهره ويدعم ممتلكاته . ولكنه نسى الأهوال التى أنزلها التتار بدولته ، وانصرف إلى محاربة أولئك الذين لم يساعدوه فى حرب التتار ، كأنهم هم مصدر الخطر الوحيد عليه ، لا التتار أنفسهم . وفى الوقت نفسه راودته الأطماع التركية التقليدية فى التوسع غربا على حساب الخلافة العباسية فى بغداد مستهدفا

تحقيق الحلم الذى عجز عنه أبوه من قبل ، كأنما عرب العراق هم أعداؤه الألداء ، لا التتار المتوحشون ، وأن كراهيته للعروبة وأهلها تفوق كراهيته لقبائل التتار التى ثلت عرش أباه من قبل .

وأدت هذه السياسة الفاسدة التى اتبعها جلال الدين منكبرتى إلى نتائج وخيمة ، حاقت به أولا وبالشرق العربى ثانية ، ولم يدرك خطورتها إلا وهو فى أيامه الأخيرة . إذ كان الواجب يقضى خلق روح من المودة والوئام بينه وبين الخلافة العباسية فى بغداد وما جاورها من أمراء العرب ، وتكوين حلف عربى منهم يقف فى وجه التتار الذين كانوا يعبئون قواهم مرة أخرى . ولكن جلال الدين أضاع كل أمل فى وحدة الصف حين زحف على إقليم خورستان التابع للخلافة العباسية ، ثم اندفع صوب بغداد بجيوشه حتى وصل بعقوبا من ضواحى تلك المدينة . غير أن الخليفة العباسى بادر بصد هذا الهجوم ، وأرسل إلى حاكم أربل بالإسراع فى تعبئة قواته وقطع خطوط التموين على جلال الدين وسد السبيل أمام جيشه عند التقهقر . ومن ثم بادر جلال الدين بالانسحاب سريعاً ، وعقد صلحا مع الخليفة العباسى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م .

ولم يكن هذا الصلح إلا ذراً للرماد ، لأن جلال الدين لم يغض الطرف عن الخلافة العباسية والعمل على النيل منها بشتى السبل ، فقضى الفترة ما بين العام التالى لهذا الصلح أى من سنة ٦٢٣ هـ إلى ٦٢٨ هـ (١١٢٦ — ١٢٣١ م) فى انتهاز الأوضاع السياسية فى الشرق العربى لتكوين حلف ضد الخلافة العباسية ، حتى فاجأه التتار أخيراً وهو فى حيرة من أمره .

وكان الشرق العربى مقسما إذ ذاك بين أبناء البيت الأيوبى والخلافة العباسية . فحكم من أمراء الأيوبيين الملك الكامل محمد فى مصر ، والمعظم عيسى فى دمشق وبيت المقدس وما جاورهما ، والأشرف موسى فى بلاد الجزيرة وميافارقين بشمال العراق . ثم وقعت بين أولئك الإخوة حادثة انتهزها جلال الدين لتحقيق مطامعه فى التوسع فى العراق ، ومعاداة الخلافة العباسية . إذ خرج الأشرف حاكم الجزيرة بشمال العراق لزيارة أخيه الكامل فى مصر ، دون أن يصطحب معه المعظم عيسى صاحب دمشق . وظن الأخ الثالث فى دمشق أن تلك الزيارة تهدف إلى التآمر عليه ، وبادر بتلبية طلب جلال الدين الذى حاول عقد تحالف معه ، يخول له الهجوم على ممتلكات الأشرف بالعراق ، ثم التعاون معاً ضد الخلافة

العباسية فى مقابل مناوأة جلال الدين للأشرف فى الجزيرة .

غير أن أبناء البيت الأيوبى أحسوا خطورة أطماع جلال الدين وسوء تدبيره ، وأنه لا مبرر لتمزيق جبهة الشرق العربى وسحب التتار تتجمع على آفاقه الشرقية مرة أخرى . وبادر الأشرف صاحب الجزيرة بزيارة أخيه المعظم بدمشق وإزالة كل أثر لسوء التفاهم والوقوف جبهة واحدة فى وجه جلال الدين ودسائسه . وفضلا عن ذلك عفا أبناء البيت الأيوبى عن جلال الدين وما اقترفه من آثام وتخريب فى ممتلكاتهم بشمال العراق ، وبسطوا له أيديهم بالسلم لأن فى بقائه قوة تؤازرهم فى دفع خطر التتار الذى كان على وشك الانفجار .

زحف التتار :

وانطلق المارد التترى مرة أخرى بعد أن تم انتخاب أجتاى بن جنكيزخان خاقانا ، ففى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٢١ م اتجهت جيوش التتار صوب بلاد الدولة الخوارزمية التى خضعت لجلال الدين منكبرتى وتدميرها نهائيا . ولم يجد جلال الدين أمامه طريقا للخلاص إلا بالهرب والاتجاه إلى أمراء ديار بكر والجزيرة والخليفة العباسى كذلك ليستنجد بهم ، ويكون

معهم حلفا لصد إغارات التتار ، التى استهدفت فى تلك المرة أرض الشرق العربى نفسه . ولكن تلك الخطوة جاءت متأخرة جدا ، إذ فاجأ التتار جلال الدين وهو فى الطريق قبل أن يصل إلى ديار بكر ، مما اضطره إلى الهرب فى بلاد الأكراد بشمال العراق حيث لقى حتفه على يد أحد أولئك السكان ، وذهب ضحية سوء تدبيره وعدائه لجيرانه ، إذ كان كما وصفه المؤرخون « قد ضعف لقبح سيرته وسوء تدبيره ، ولم يترك له صديقا من ملوك الأطراف وعادى الجميع » .

وواصل التتار زحفهم على مدن العراق بعد مقتل جلال الدين ، فقصدوا ميافارقين وما جاورها من القرى وقتلوا من أهلها عددا كبيرا قدَّره بعض التجار المتجولين فى تلك الجهات بما يزيد على خمسة عشر ألف قتيل ، ثم تابعوا المسير إلى الموصل مستولين على كل ما صادفهم فى الطريق ، وقتل كل من يقع فى أيديهم من الناس . وبلغت أعمال التتار الوحشية بالعراق أبشع صورها فى قرية قرب الموصل تسمى : المؤنسة ، فذكر شاهد عيان ما حدث بها عند دخول التتار قائلا : « اختفيت منهم ببيت فيه تبن ، فلم يظفروا بى ، وكنت أراهم من نافذة فى البيت ، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول ، لا بالله ،

فيقتلونه . فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ويضحكون ويغنون بلغتهم ، يقول لا بالله » .

وانهارت الروح المعنوية عند السكان بسبب ما بلغهم عن وحشية التتار ، ولم يقدر أحدهم على مقاومتهم حتى إذا كانت الفرصة مواتية للانتقام منهم أو الهرب من سبيلهم . فقال المؤرخ المعاصر لتلك الأحداث وهو ابن الأثير : إنه بلغه عن مظاهر الرعب والذعر روايات « يكاد سامعها يكذبها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم ، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم (أى من التتار) كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد ، لا يتجاسر أحد بمد يده إلى ذلك الفارس . ولقد بلغنى أن إنسانا منهم (أى التتار) أخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى وأحضر سيفا فقتله به » .

وقام التتار بعد ذلك بعدة حملات استطلاعية واسعة النطاق لاختبار أحوال سائر جهات العراق ، والوقوف على قوة جيوشه وحصونه . ففى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٥ دخلوا إربل ، التى تعتبر

مفتاح العراق فى الشمال ، والتى تتحكم فى الطريق المؤدى إلى بغداد . وهناك دمروا فى سرعة ما صادفهم من حصون فقتلوا الكثير من سكانها ، ثم تركوا تلك المدينة بعد أن اعتصمت حاميتها بالقلعة لأنهم استهدفوا فقط دراسة مناطق العراق الأخرى ، وزحفوا على مدينة سامرا ، التى اتخذها الخلفاء العباسيون عاصمة لهم فى فترة من الفترات . وعندما بلغت تلك الأخبار المفزعة الخليفة العباسى المستنصر استعد على عجل لمقاومة طلائع التتار التى كادت تقترب من بغداد نفسها . والتقت جيوش المستنصر بطلائع التتار عند حمرين وجيله على نهر دجلة ، وأنزلت بأولئك الغزاة الهزيمة .

غير أن التتار عادوا إلى العراق مرة أخرى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م بمجموعة بلغت نحو عشرة آلاف رجل واستدرجوا جيوش الخليفة العباسى إلى كمين نصبوه لها ، وقتلوا منها عددا كبيرا . ثم تكررت حملاتهم على شمال العراق ومدنه بصفة خاصة تمهيدا لغزوهم الكاسح المنتظر ، وتعرضت أرض الجزيرة وديار بكر وميافارقين للسلب والنهب ، حتى قتل من سكانها أكثر من عشرة آلاف إنسان ، كما عطلت المواصلات بينها ، وانقطعت مظاهر التبادل التجارى فيها بسبب إغارات التتار على القوافل ونهبها .

واستخدم التتار فى تلك الإغارات كل أساليب الخديعة والمكر ، ولاسيما مع الأهالى العزل ، حتى صارت الحياة فى مدن شمال العراق شاقة ، وأسباب الطمأنينة فيها معدومة .

وتمخضت تلك الإغارات عن كشف الضعف الشديد الذى ساد العراق وأمراءه ، وأن الهيبة التى كان التتار يحملونها للسلطات فى الشرق العربى قد زالت بعد أن لمسوا بأنفسهم تفرق كلمة أصحاب السلطان من العرب . ذلك أن التتار أحجموا عن التوغل فى شمال العراق أثناء حروبهم الأولى ضد الدولة الخوارزمية أيام حاكمها علاء الدين خوارزم شاه ، حيث بلغهم أن الخليفة العباسى يعد حلفا لصد إغاراتهم التى اقتربت من العراق . ولكن فى حملاتهم الثانية على الدولة الخوارزمية فى عهد جلال الدين منكبرتى صمموا على دراسة العراق واختبار قوة أصحابه ، وقاموا من أجل ذلك بالإغارات الواسعة السالفة الذكر . وشرح ابن الأثير هذه الخطة الجديدة التى رسمها التتار لمعرفة أحوال الشرق العربى قائلا :

« ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل إلى الموصل وأقام بها هو ورفاقه ، ثم سافروا إلى الرى قبل خروج التتار (إلى العراق) . فكتب إلى أصحابه

بالموصل يقول : إن الكافر (التتار) لعنه الله ما نقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين ، فإن الأمر عظيم ، ولا تظنوا أن هذه الطائفة التى دخلت نصيبين . . . والتى وصلت إلى إربل كان مقصدهم النهب ، إنما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا . فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وأن البلاد خالية من ملك وعساكر ، فقوى طمعهم ، وهم فى الربيع يقصدونكم . . . فانظروا لأنفسكم . . . فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

التحالف بين التتار والصليبيين :

وعلى الرغم من اطمئنان التتار إلى خلو العراق من القوى الدافعة عنها ، إلا أنهم بدأوا يبحثون عن حليف يساعدهم فى هجومهم على بلاد الشرق العربى ، لأن أهله يتصفون بالترابط عند الشدائد والمبادرة بمساعدة بعضهم بعضا . ووجد التتار حلفاءهم الطبيعيين فى الصليبيين الذين نالوا من الهزائم على أيدى أبناء الشرق العربى ما جعل سلطانهم على وشك الزوال ، وأنهم لا شك مرحبين بهذا العرض التترى لما فيه من أمل بقائهم فى ممتلكاتهم المزيلة بأجزاء متفرقة من الشام ، عبارة عن

شريط ضيق على البحر الأبيض المتوسط . وكان خاقان التتار إذ ذاك هو جغطاى الذى أقدم على اتخـاذ تلك الخطوة الدبلوماسية التى استهدفت الإحداق بالشرق العربى من جهتين ، وتشتيت قواته والحيلولة بينها وبين التآزر والتعاون .

وكانت الظروف مواتية للتتار للإقدام على خطتهم الجديدة، إذ بلغهم أن لويس التاسع ملك فرنسا قد وصل إلى قبرص سنة ١٢٤٨م ، وجعل منها قاعدة يستعد فيها للهجوم على مصر ، التى صارت هدف الصليبيين ورمز المقاومة لمشاريعهم ضد الشرق العربى . وذاعت الأخبار عن قوة جيش لويس التاسع وكثرة عدده وعتاده حتى بلغت مسامع التتار فى عاصمتهم البعيدة بوسط آسيا فى قره قورم . ذلك أن لويس التاسع أراد أن ينتقم مما حدث للصليبيين من قبل عند فشلهم فى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٨ م ، ورغب فى الهجوم على دمياط نفسها مرة أخرى، ليتم له عن طريقها دخول البلاد المصرية والسيطرة عليها ، ويحقق بذلك ما فشل الصليبيون فى الوصول إليه .

وفى أثناء الفترة التى قضاها لويس التاسع فى قبرص (سبتمبر ١٢٤٨—١٢٤٩م) وصلت سفارة من عند جغطاى لعقد تحالف معه ، تذكر له استعداد خاقان التتار لمساعدته فى انتزاع بيت

المقدس من العرب . ويرى بعض المؤرخين أن اتجاه حملة لويس التاسع إلى مصر لم تكن إلا بإيعاز من جغطاى وتشجيعه . ومهما يكن من صحة هذا الرأى فمن المقطوع به أن هدف التتار والصليبيين قد اتفق على ضرب مصر وإضعافها باعتبارها القوة المناوئة لأطماعهما فى الشرق العربى ، الذى خلا إذ ذاك من أصحاب سلطان آخرين. فالتتار يرتبون خططهم للدخول بدورهم مسرح الشرق العربى ، والسيطرة على العراق والشام ، بعد أن رسمت لهم جيوشهم الاستطلاعية صورة دقيقة عن ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتفكك أبناء البيت الأيوبى فى الشام وشمال العراق . وأدرك التتار كما أدرك الصليبيون من قبل أن مصر صارت حاملة لواء الجهاد العربى ، وأنها لن تقف برغم ما تعانيه من متاعب الصليبيين موقف المتفرج من هجومهم المنتظر على العراق ، ولا بد أنها ستقوم بواجبها لصد هذا العدوان .

وهكذا كانت سفارة جغطاى إلى لويس مناورة دبلوماسية بارعة من التتار تستهدف شل التعاون بين أرجاء الشرق العربى ، واقتسام بلاده مع الصليبيين . وأكرم لويس وفادة تلك السفارة التترية، ودعا أعضاءها للاشتراك معه فى احتفالاته التى أقامها فى قبرص، وسمح لها أخيراً بالعودة ،ومعها بعثة من رجاله لوضع

شروط الاتفاق بين التتار والصليبيين . غير أن جهاد مصر الرائع أفسد هذا التحالف الخطير ضد الشرق العربى قبل أن يدخل فى دور التنفيذ العملى . ذلك أن لويس التاسع أراد أن يبادر بالهجوم على مصر معتقداً أن أبناء البيت الأيوبى بها لن يستطيعوا الحصول على مساعدات من إخوانهم بالشام بسبب اقتراب الخطر التتارى منهم ، أو من العراق كذلك حيث صار التتار قاب قوسين أو أدنى من ديارها .

وفى سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩م نزل لويس التاسع بحملته فى دمياط واستولى عليها وجعلها قاعدة للزحف على شمال الدلتا بغية الوصول إلى القاهرة . وكان سلطان مصر إذ ذاك الملك الصالح نجم الدين أيوب قد استبد به المرض ، ولكنه أسرع باتخاذ العدة لصد هذا العدوان الصليبى ، واتخذ من المنصورة مركزا لجيوشه لأنها تتمتع بموقع حصين ، حيث يحميها النيل غرباً ، ويفصل بحر أشموم بينها شمالا وبين الصليبيين إذا ما تقدموا من دمياط . وأظهر المصريون روحاً عالية فى الاستعداد والقتال . ذلك أن الملك الصالح أيوب توفى بعد يومين من زحف الصليبيين من دمياط على شمال الدلتا ، فأخفت زوجته شجرة الدر خبر الوفاة حتى يأتى ابنه المعظم توران شاه من الشام ويتولى

قيادة الجيوش . ولم يتسرب هذا الخبر إلى الجند ، وظهرت من بينهم شخصيات قامت بأدوار رائعة من البطولة فى القتال . ومن أولئك ركن الدين بيبرس البندقدارى ، الذى قدر له أن ينتقل فيما بعد من جهاد الصليبيين إلى جهاد التتار كذلك ، ويصبح بطلا من أبطال الشرق العربى وحماته .

وتجلت جرأة ركن الدين بيبرس حين وصل الصليبيون المنصورة ، واستطاعوا التسرب إليها ، إذ باغت هذا القائد جماعات الصليبيين داخل المنصورة ، وتعقبهم فى الأزقة والشوارع على حين أخذ الناس يرمونهم بالحجارة والطوب من الأسطح والنوافذ ويرشقونهم بالسهام والرماح . وانتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وقتل أحد قادتهم العظام وعدد كبير من خيرة الفرسان .

وبعد ذلك بقليل وصل المعظم توران شاه إلى المنصورة وتولى القيادة العامة للجيش المصرى . ورسم السلطان الجديد خطته على أساس قطع خطوط تموين الصليبيين الذين انتشروا فى شمال الدلتا وعزلهم عن قاعدتهم فى دمياط . وكانت سفن الصليبيين تجلب المؤن والإمدادات من دمياط إلى المعسكرات عن طريق النيل . واستطاع المصريون مهاجمة تلك السفن

الصليبية حتى بات الصليبيون محصورين لايجدون طعاماً ، واضطروا إلى أكل لحوم الخيول والبغال التى كانت معهم . ثم ازدادت حالتهم سوءا حتى إن لويس التاسع أراد أن ينهى حملته بإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبما يحفظ له ماء وجهه . فطلب مفاوضة المصريين على أساس انسحابه من دمياط مقابل أن يتنازل له السلطان عن بيت المقدس بفلسطين . وكان من الطبيعى أن يرفض المصريون هذا الطلب ، وشددوا هجماتهم على الصليبيين .

واستقر عزم لويس التاسع على الانسحاب إلى دمياط والتحصن بها ، حتى تأتيه إمدادات جديدة . ولكن ركن الدين بيبرس ، بطل المنصورة شاهد انسحاب الصليبيين ، ومسير قواتهم على عجل بمحازاة الشاطىء الأيمن لفرع دمياط ، فأسرع هذا القائد بتعقب الصليبيين ومناوأتهم وعرقلة حركاتهم . وأخيرا التقى ركن الدين بيبرس بأولئك الصليبيين عند فارسكور جنوبى دمياط ، حيث عمد الى الحيلولة بينهم وبين الالتجاء إلى قاعدتهم فى الشمال . ودارت رحى معركة عنيفة سقط فيها عدد كبير من قتلى الصليبيين ، بلغوا حوالى سبعة آلاف نفس ، على حين لم يستشهد من الجيش المصرى سوى مائة . وانهارت مقاومة الصليبيين بعد ذلك ، وسقط قائدهم الأعلى نفسه لويس التاسع

أسيرا ، حيث اعتقل فى دار القـاضى فخر الدين بن لقمان بالمنصورة .

وفى تلك الأثناء وقع انقلاب خطير أدى إلى انتقال السلطان فى مصر من البيت الأيوبى الى جندهم من المماليك ، الذين يرجع إليهم الفضل فى انتصارات المنصورة وفارسكور . ذلك أن المعظم توران شاه بدأ يظهر استخفافه بأولئك المماليك حين حضر إلى فارسكور ، ولم يبد تقديرا لهم . وانتهت حالة التوتر بقتل توران شاه ، وزوال البيت الأيوبى ، وقيام حكم المماليك سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م . وفى العام نفسه أطلق المماليك سراح لويس التاسع بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال .

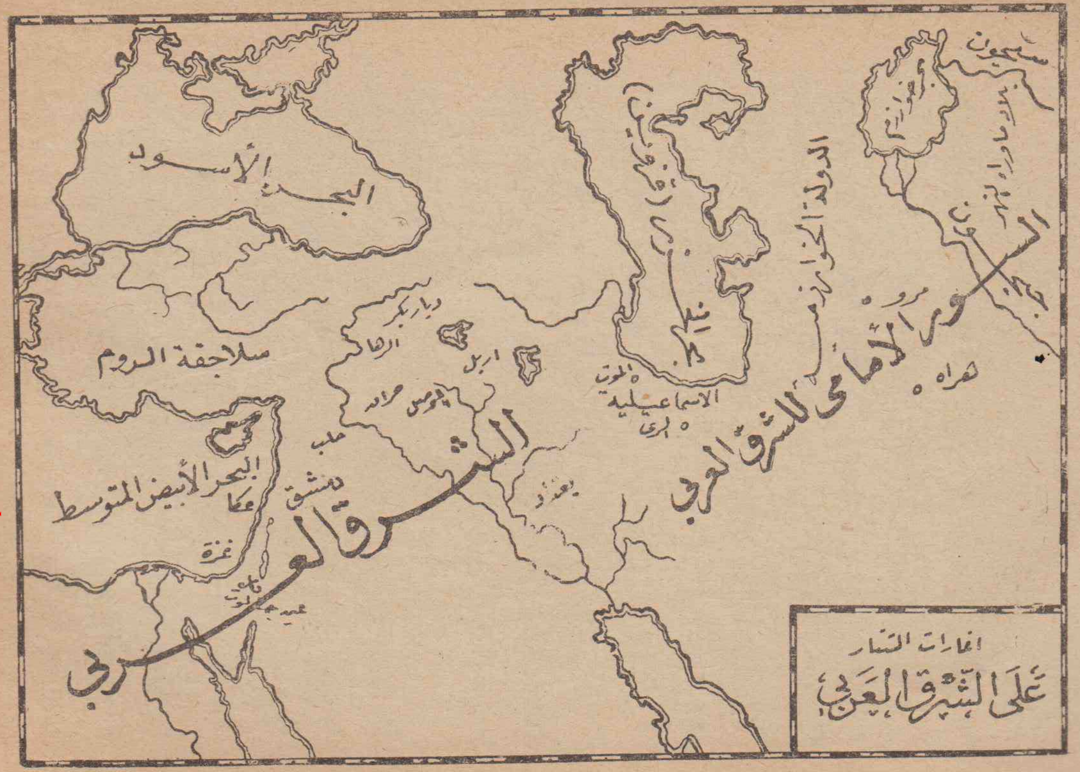
وبعودة لويس التـاسع انهارت كل خطط الصليبيين فى الاستيلاء على مصر ، وأصبحت البلاد بمأمن من هذا الخطر الذى تحطم تحطيما كاملا . وكان لهذا الفوز المصرى أثر كبير فى تحديد مصائر الشرق العربى ، ذلك أن سفارة لويس التاسع عادت من عند التتار دون أن تدرى الهزيمة النكراء التى حلت بالصليبيين ، كما أن أمل التتار فى القضاء على مصر أو إخراجها من دائرة الدفاع عن الشرق العربى قد خاب ، ووجدوا الجيوش المصرية لهم بالمرصاد بعـد أن ظنوا أنهم صاروا قاب قوسين

أو أدنى من السيطرة على الشرق العربى بفضل انتصاراتهم الوحشية فى العراق وشمال الشام .

تخريب بغداد :

وفى السنة نفسها التى انتصرت فيها الجيوش المصرية على الصليبيين وقائدهم لويس التاسع فى دمياط، دخل التتار فى حركة توسع جديدة مستهدفين الاستيلاء على العراق والشام . وبدأت طلائع تلك الحركة فى قيام التتار بسلسلة من أعمال الإرهاب فى المدن التى ستجتازها جيوشهم ولا سيما فى شمال العراق . فبعثوا برسول من عندهم إلى حاكم ميافارفين يطلب منه تدمير أسوار بلدته والاستعداد لتزويد التتار بما يحتاجونه من سلاح . وفى الوقت نفسه أخذ حاكم الموصل يفرض على رعاياه ضرائب ليدفعها إلى التتار ثمنا للحصول على السلام ، وأصبحت جهات شمال العراق والشام فى حالة ذعر شديد وخوف من مجرد ذكر اسم التتار .

وبعد أن اطمأن التتار إلى تنفيذ تلك المرحلة الأولى من خطتهم عهد الخاقان نفسه وهو منجوخان إلى أخيه هولاكو بفتح العراق والشام . وكان هولاكو قد تشبع بروح جده


اغارات التتار
على الشرق العربي
البحر الأسود
سلاجقة الروم
البحر الأبيض المتوسط
عكا
غزة
دمشق
حلب
ديار بكر
الرها
اربل
بغداد
الموت
الاسماعيلية
الري
الدولة الخوارزمية
مرو
هراة
بحيرة خوارزم
بلاد ما وراء النهر
سيحون
جيحون

جنكيز خان ، الذى قابله أثناء عودته من أطراف العراق ، بعد تدمير الدولة الخوارزمية ، وتلقى منه راية التخريب والتدمير الوحشى . ورسم هولاكو خطته الحربية بتطويق العراق والشام وسط كماشة هائلة يتكون طرفها الشمالى من السيطرة على مدن شمال العراق وما جاورها من بلاد السلاجقة الذين استقروا فى جنوب آسيا الصغرى من دولة الروم ، وطرفها الجنوبى من تدعيم سلطانه فى خراسان وشمال فارس بالقضاء على الجماعات المناوئة فيها للتتر .

ومهد هولاكو للطرف الشمالى من كماشته الحربية بالقيام سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م بإغارة سريعة على أرض الجزيرة بشمال العراق ونهبت جيوشه ديار بكر وميَّافارقين ، وقتلت اكثر من عشرة آلاف إنسان ، كما عمدت إلى قطع سبل الاتصال التجارى بين تلك الأرجاء بمهاجمة القوافل التجارية ، فصادفت قافلة خرجت من حران تقصد بغداد ، وأخذت منها ستمائة حمل سكر مصرى ومبلغاً كبيراً من المال . وانتشرت جيوش التتار على امتداد الفرات تقتل الشيوخ والعجائز ، وتأخذ ما تشاء من النساء والصبيان ، وقطعوا الفرات حتى اضطر الناس إلى الخوض فى المياه ، ولقى كثير منهم حتفه ، حتى إن شاهد

عيان رأى فى مكان صغير ما يزيد على ثلثمائة وثمانين قتيلا .

وفى سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٣م سار هولاكو من سمرقند قاصدا تحقيق الشطر الجنوبى من حركة التطويق الكبرى للعراق ، وذلك بالقضاء على جماعة الإسماعيلية فى شمال فارس . وعرفت تلك الطائفة بهذا الاسم لأنها فرع من الشيعة ينتسب إلى الإمام السابع ،وهو إسماعيل بن جعفر الصادق. واشتهرت تلك الطائفة بظهور عدد من أتباعها اتصفوا بالإلحاد ، وسموا أحيانا بالحشيشية لاعتمادهم على مادة الحشيش فى نشرمذهبهم بين الناس . واستطاع أحد زعماء تلك الطائفة وهو الحسن الصباح أن يستولى على إحدى القلاع الحصينة بالشمال الغربى من فارس ، وهى قلعة ألموت ، وجعلها مركزا لدعوته . وقد تنبه الإسماعيلية منذ عهد مبكر إلى خطر التتار ، وأرادوا قبل قيام التتار بحركتهم التوسعية الثانية ضد العراق عقد تحالف مع ملوك انجلترا وفرنسا ، لإيقاف حروبهم ضد الشرق العربى، وتكريس المجهود الحربى ضد التتار ، حيث بدأ خطرهم يمتد إلى أوربا نفسها كذلك . وبعث الإسماعيلية رسولا منهم سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م ، إلى انجلترا وفرنسا يطلب منهما المساعدة ضد التتار ، ولكن عاد دون أن يحقق شيئاً ، لأن أهداف كل من هذين البلدين ،

ولاسيما فرنسا قد اتفقت على القضاء على مصر ، باعتبارها مركز المقاومة لمشاريع الصليبيين ، وأن يقظة القومية العربية أخطر عليهم من حركات التتار التوسعية .

وبذلك كان أشد أعداء التتار فى فارس هم طائفة الإسماعيلية التى اتجه إليها هولاكو بنفسه ، وحاربها حرباً عنيفة ، حتى استطاع أخيراً القضاء عليها ، والاستيلاء على قلعتهم الحصينة فى ألموت . وصارت خطة هولاكو الحربية على وشك التنفيذ صوب العراق . فبعث فى تلك السنة التى استولى فيها على قلعة ألموت سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م أحد جواسيسه إلى علاء الدين ابن العلقمى وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله ليجعل منه طابورا خامساً ، جريا على سياسة التتار فى اصطناع العملاء قبل الهجوم مباشرة على أى بلد من البلاد . وكان هذا الوزير العباسى شيعياً من جماعة الرافضة ، ويحقد على العباسيين السنيين ويتمنى زوال ملكهم ، وتحويله إلى العلويين . وعرف التتار تلك الميول عن علاء الدين بن العلقمى ، ورأوا فيه خير عميل يحقق لهم مطالبهم ، ونجحوا فى ضمه إلى طابورهم الخامس ، بحيث صار يصانعهم سرا ، ويكتب إليهم بكل الأخبار .

وأخـذ علاء الدين بن العلقمى يبث الرعب فى النفوس

عن التتار، ويقول أنهم قوم لاينهزمون ، وينصح الخليفة بأنه يجب مصانعة التتار من أجل صالح الدولة ، وأنه لا داعى للاحتفاظ بالأعداد الكبيرة من الجيوش، طالما أن العلاقات طيبة مع التتار. وكان سلف الخليفة المستعصم قد استكثر من الجند عندما صار خطر التتار قريبا من العراق ، وتكررت إغاراتهم على مدنه ، حتى بلغت عسكر الخلافة العباسية مائة ألف . ودأب الوزير ابن العلقمى على إغراء الخليفة بقطع أرزاق عدد كبير من الجند توفيرا لميزانية الدولة ، وحثه على مهادنة التتار . وفى الوقت نفسه كاتب ابن العلقمى التتار سرا ، وأغراهم بفتح العراق ، وبعث إليهم أخاه وخادمه الخاص يشرح لهم أيسر السبل للهجوم على العراق ، ويطلب منهم أن يكون نائبهم بالبلاد ، فوعدوه بذلك . وتابع ابن العلقمى خدماته للتتار ، بأن أخذ يخفى عن الخليفة تحركات قواتهم واقترابها من العراق . فحين كتب التتار إلى لؤلؤ صاحب الموصل يطلبون منه إعداد السلاح وغيره من شئون التموين بعث إلى الخليفة يحذره ، ولكن ابن العلقمى كان يتلقى تلك الرسائل ويقرأها من دون الخليفة ، ويجيب عنها بما يختار ، حتى صار الخليفة لا يدرى شيئا من جحافل التتار التى كانت قاب قوسين أو أدنى من عاصمته نفسها .

ثم وقعت الحادثة التى دعت ابن العلقمى إلى أن يرسل إلى التتار يدعوهم لفتح العراق . ذلك أنه دأب على إثارة الفتن بين أهل السنة والرافضة من أتباعه ليتحقق له ما يريد . واشتد النزاع حتى تجالدوا بالسيوف ووقع كثير من القتلى من أهل السنة . فأمر رئيس الشرطة بالهجوم على أهل الكرخ فى بغداد ومعظمهم من الرافضة وقتلوا منهم عدداً كبيرا . فحنق الوزير ابن العلقمى ونوى الشر سرّا ، وأمر أهل الكرخ من الرافضة بالصبر والكف عن القتال ، وقال لهم : أنا أنتقم لكم مما حدث ، وبعث إلى التتار يستنجد بهم .

وصار الطريق ممهداً أمام هولاكو لتحقيق مآربه فى العراق ، وفى ذى القعدة سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م تحرك من مقره فى همدان بعد قضائه على الإسماعيلية ، وزحف مباشرة إلى بغداد . وبعث فى الوقت نفسه جيشا آخر للهجوم على بغداد عن طريق تكريت والموصل تحت قيادة بايجونوين . وكان عدد جيش هولاكو وحده ثلاثين ألفا ، على حين لم يقدر الخليفة أن يعد إلا عشرين ألفا . وتقدمت جيوش التتار فى زحف سريع تجاه بغداد . واقتربت قوات بايجو نوين من بغداد ، واقتتلت مع جيوش الخليفة على البر الغربى من دجلة وأنزلت بهم هزيمة

فادحة حيث غرق عدد كبير منهم ، وهرب الباقون . ثم تابع هذا القائد زحفه حتى صار على مقربة من دار الخلافة نفسها ، لا يفصله عنها سوى نهر دجلة .

وقصد هولاكو فى الوقت نفسه بغداد من البرّ الشرقى وأحاط بالبلدة من هناك . وهنا بدأ ابن العلقمى أعمال الطابور الخامس والخيانة . فأشار على الخليفة بمصانعة التتار ، وقال له : أخرج إليهم أنا فى طلب الصلح ، وسمح له الخليفة بذلك ، ولما اجتمع بهولاكو أخذ لنفسه المواثيق ، ثم عاد ليتم رسالة الخيانة . فقال للخليفة : إن هولاكو قد رغب فى أن يزوج بنته بابنك الأمير أبى بكر ويبقيك على منصبك ، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له ، كما كان أجدادك مع السلاطين من السلاجقة، وينصرف هو عنك بجيوشه ! وأرى أن نجيبه يا أمير المؤمنين لهذا ، فإن فيه حَقْن دماء المسلمين ، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد ! وأرى أيضاً أن تخرج إليه وتتفاوض معه .

ولما توجه الخليفة إلى معسكر التتار بدأت المؤامرة تتم فصولها ، ذلك أن هولاكو لم يقابله وإنما أنزله فى خيمة منعزلة . ثم عاد ابن العلقمى إلى بغداد بأمر هولاكو ليتم خيانته ، إذ استدعى الفقهاء والأعيان وطلب منهم الذهاب

إلى معسكر التتار ليحضروا عقد بنت هولاكو على ابن الخليفة. فخرجوا من بغداد إلى هولاكو ، الذى أمر بضرب أعناقهم توا . وقام بايجونوين بمد جسر على النهر ودخل بجيشه بغداد حيث أعمل السيف فى سكانها . واستمر القتل والنهب والسبي فى بغداد أكثر من ثلاثين يوما . وأصاب بغداد خراب عظيم ، وأحرقت كتب العلم التى كانت بها من سائر العلوم والفنون ؛ كما قيل إن التتار بنوا بها جسرا من الطين عوضا عما كان بها من الآجر .

وبعد أن تم الأمر لهولاكو أمر بقتل الخليفة وولده ، حيث وضع كل منهما فى بساط وأمر برفسهما حتى ماتا . وكان ذلك فى شهر المحرم من سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ، التى تعتبر من أسوأ سنوات الشرق العربى ، عبر عنها خطيب بغداد فى آخر جمعة بتلك البلدة حيث قال : « اللهم أجِرْنا فى مصيبتنا التى لم يُصِبْ الإسلام وأهله بمثلها ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

هولاكو فى الشام

مجهودات مصر لرفع الروح المعنوية بالشام

محور دمشق — القاهرة :

عندما وصلت بلاد الشام أخبار التتار فى العراق وتخريبهم بغداد وقتل الخليفة العباسى نفسه ، بدأ الذعر يدب فى نفوس أمرائها ، وصاروا يعانون قلقاً وحيرة فى تدبير أمرهم . فرأت الغالبية العظمى من أمراء المدن الشامية الكبرى التقرب إلى التتار ، والمبادرة بالاتصال بهم ليحصلوا منهم على عهود أمان ، ثم عاد نفر من أولئك الأمراء وتطلع إلى مصر التى خرجت منتصرة من حروبها ضد الصليبيين يلتمس عندها النجدة والإرشاد . وبذلت السلطات المصرية جهوداً جبارة فى الحيلولة بين أمراء الشام وبين الاتصال بالتتار ، والقيام فى الوقت نفسه بحركة مقاومة شديدة لأعمال الإرهاب ودسائس الطابور الخامس التابع للتتار فى مدن الشام . وكانت تلك المرحلة من أشق الأعباء التى نهضت بها مصر لأنها تتطلب رفع

روح أهل الشام المعنوية ، وإزالة العقدة النفسية التى رسخت عندهم عن أن التتار قوم لا ينهزمون .

وكانت أول مشكلة تصدت مصر لحلها هى : أن الملك الناصر صاحب دمشق أرسل ابنه إلى هولاكو عقب انتصاره فى بغداد يطلب منه تفويضاً بالأمان . وكان السبب فى إقدام صاحب دمشق على تلك الخطوة هو الرهبة التى سادته عن التتار ، وعدم قدرته على تدبر الموقف فى تؤدة وأناة . ذلك أن التتار لم يضربوا مثلا واحداً منذ هجومهم على الشرق العربى على احترامهم للعهود والمواثيق ، لأنهم أهل غدر ، ويتخذون من كتب الأمان وسيلة لإرهاب الناس وتدعيم سيطرتهم عن أسهل طريق وأقربه . ومن ذلك أن ابن الملك الناصر عاد برسالة من هولاكو كلها وعيد وتهديد ، وصيغت فى أسلوب رائع كشف عن وجود قلم من الطابور الخامس من أهل الشرق العربى فى خدمة التتار ، وسخروا أدبهم لأعمال الخيانة . فجاء فى خطاب هولاكو ما يلى :

« الذى يعلم به الملك الناصر ... أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها . كما قال الله تعـالى فى كتابه العزيز : « إن الملوك إذا دخلوا

قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلّة وكذلك يفعلون » . واستحضرنا خليفها (صيغة تحقير للخليفة) وسألناه عن كلمات فكذب ؛ فواقعه الندم واستوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تمّ أمر دنا نقصه ... توقّ زوالا إذا قيل تمْ
إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وكم من فتى بات فى نعمة ... فلم يدر بالموت حتى هجم

إذا وقفت على كتابى هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (أى هولاكو) ... تأمن شره وتنل خيره. كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرَى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ولا تعوّق رسلنا عندك كما عوّقت رسلنا من قبل . . . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان سراى (وهى كلمة معناها فندق المسافرين ومحط الرحال ، كناية عن أرض مصر التى عرفها التتار بهذا الاسم) فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الثرى والماء
ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت في قبضتى الأمراء والوزراء »

وأثار هذا الخطاب الفزع فى نفس الناصر وأهل دمشق كذلك ، وبادر بالالتجاء إلى مصر بعد أن عجز عن تحقيق أمان مع هولاكو ، وبعث بسفير له إلى القاهرة ، هو الصاحب كمال الدين عمر بن العديم ، يستنجد بعسكرها . ولما قدم السفير إلى القاهرة عُقد مجلس بالقلعة حضره الملك المنصور وقاضى القضاه والفقهاء والأمراء من رجال الجيش ، وأخذوا يتدارسون الموقف . وكان أول اقتراح ذكر هو فرض ضرائب على الناس وإنفاقها على الاستعداد الحربى . فقال أحد الفقهاء : « إذا لم يبق فى بيت المال شىء ، وأنفقتم الذهب ونحوه من الزينة وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ، ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء . إلا إذا دهم العدو ، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم » .

غير أن أحد الأمراء من الحاضرين واسمه سيف الدين قطز رأى أن الملك منصور صبى صغير لا يعرف تدبير الموقف فى هذه المرحلة الدقيقة ، وأنه لابد من سلطان ماهر يبادر بمقاتلة

التتار . واستطاع قطز أن يعزل هذا الملك ويتولى السلطنة بمصر ، ويبرر عمله للناس قائلا : « إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ، ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم ، أقيموا فى السلطنة من شئتم » . وكانت هذه الخطوة عملا موفقا من قطز ، لأن المبادرة بالاستعداد لقتال التتار يرفع من الروح المعنوية التى انهارت عند أمراء الشام ، ويشجع أمثال الملك الناصر فى دمشق على العودة إلى الصف العربى ، والتعاون على محاربة هذا العدو الجبار .

وأرسل قطز بعد تولية السلطنة إلى الملك الناصر فى دمشق يدعوه إلى التضامن من أجل الدفاع عن الشام ومصر ، وعدم قبول أية مساعدة حربية من هولاكو ، لأن فى ذلك احتلالا للبلاد من جانب التتار ، وسبيلا لبث الفرقة فى الصفوف . وعمل قطز فى الوقت نفسه على أن يثبت لصاحب دمشق بكل الطرق أنه لا يهدف إلا صالح الشرق العربى ، وأنه يقبل الخدمة تحت رايته من أجل حراسة البلاد من أعدائها ، فكتب إليه يقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه ، وأنه يعتبر نفسه نائبا عنه بديار مصر ، وإذا جاء إليها أقعده على كرسى السلطنة ذاته ، ثم أضاف قطز فى خطابه لصاحب دمشق قوله : « وإن

اخترتنى خَـدَمْـتُـك ، وإن اخترتَ قَـدِمْـتُ ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك . فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره » .

وكشف قطز بهذا العمل الأول له فى استعداده الحربى عن حرصه على خلق تعاون وثيق بين الشام ومصر ، وتوحيد جيوشهما لصد العدوان التترى ، وبرهن على ما يتمتع به من مهارة حربية وعقلية استراتيجية فذة . ذلك أن أجزاء الشرق العربى تكون وحدة واحدة فى الدفاع عن نفسها ، وإذا كانت العراق قد سقطت فريسة للتتار ، فالواجب يقتضى قيام الشام ومصر برد العدوان ، وتحرير العراق مرة أخرى من عبودية التتار . وكانت أقوال قطز صريحة وجريئة ولا تدع مجالا للتأويل ، مما أدخل الطمأنينة على نفس صاحب دمشق ، وبدأت أنظاره وأنظار مواطنيه تطلع إلى مصر ، وتنتظر على يديها الإنقاذ والخلاص .

التجمعات العربية فى مصر :

وبدأت الوفود من المدنيين والعسكريين تفد إلى مصر عندما بلغتهم أخبار استعدادات هولاكو للزحف على الشام . واستهدفت

وفود الشام وضع خدماتها وإمكانياتها تحت تصرف السلطات المصرية ، بعد أن لمست عجز أمرائها عن صد هذا العدوان التتارى المنتظر . فحدث أن قام التتار بغارة سريعة على حلب لدراسة استراتيجيتها وقدرتها على الدفاع ، وقتلوا كثيرا من سكانها . فخرج صاحب دمشق ، وصمم على قتال هولاكو ، وبعث إلى قطز يطلب منه النجدة ، ولكن عندما بلغ صاحب دمشق البرزة ، وهى قرية بالغوطة شمالى دمشق خارت قواه ، ودب الفزع فى نفسه مرة أخرى . ذلك أن الطابور الخامس أخذ يشيع بين الجند أن التتار لم يلقوا أية هزيمة منذ اقتحموا بلاد الشرق العربى ، ولن يكون فى قدرة أحد الوقوف فى وجههم أو صد زحفهم . وكان أخطر عميل للتتار فى الشام فى تلك الأثناء الأمير زين الدين الحافظى ، إذ بدأ يعظم من شأن هولاكو وينصح بألا يبادر أحد إلى قتاله ، ويذكر أن المصلحة تقتضى مداراته والدخول فى طاعته . وفت هذا القول السىء فى عضد عساكر الشام ، وأصبح الملك الناصر صاحب دمشق فى حيرة من أمره مرة أخرى .

وهنا تظهر شخصية مصرية كان لها أثر عظيم فى معالجة هذا الموقف الخطير ، وذلك بتشجيع الجند على الذهاب إلى مصر

والتجمع بها استعدادا لضرب التتار ضربة قاصمة . وكان هذا المصرى هو ركن الدين بيبرس صاحب انتصارات المنصورة ضد الصليبيين . إذ حدث أن غادر بيبرس مصر حين قتل المعظم توران شاه ، وأبى الاعتراف بسلطة أيبك المملوكى ، ودخل فى خدمة الناصر صاحب دمشق . وشاءت الأقدار أن تضع بيبرس فى الشام فى تلك الفترة ليشاهد أساليب التتار وأنهم لاينتصرون إلا بفضل عملائهم من أهل البلاد ودسائس طابورهم الخامس . وتجلت جرأة بيبرس حين نسى أنه فى خدمة الناصر ، وأجاب الأمير زين الدين الحافظى إجابة تكشف عن دوره المؤلم فى الخيانة ، حيث قال له : « أنتم سبب هلاك المسلمين » .

وطلب بيبرس من الناصر قوة مقدارها أربعة آلاف فارس ، أو يضعها تحت إمرة شخص آخر ، ويتوجه بها إلى شط الفرات ليمنع التتار من عبوره ، وإثارة الرعب فى نفوس السكان عن طريق إغاراتهم المخربة. غير أن صاحب دمشق كان قد وقع فريسة العملاء من أمثال الأمير زين الدين الحافظى ، وابن عمه كذلك الملك إسماعيل ، الذى كان على اتصال سرى مع التتار . وأصبح الجو خانقا أمام بيبرس ، وبدأ يفكر فى العودة

إلى مصر ، ولاسيما أنه قد تولى سلطنتها إذ ذاك قطز ، الذى أبدى استعداده منذ أول أمره لحرب التتار . فبعث بيبرس سفيرا إلى قطز يعرض عليه العودة إلى مصر ، ويأخذ لنفسه المواثيق منه . ورحب قطز بعودة بيبرس لأنه كان يريد أن يضم إليه كل الأبطال والشجعان لحرب التتار ، وركب بنفسه لاستقباله وأنزله فى دار الوزارة ، وهى المقر الرسمى للدولة ، كما أعطاه جهات قليوب إقطاعاً له .

وصارت مصر بعودة بيبرس إليها سنة ٦٥٨م / ١٢٦٠م مركزا لتجمع الأبطال المتعطشين لحرب التتار ، وممن لم تؤثر فيهم أساليب الطابور الخامس أو وسائل التهديد والوعيد . فأخذت قوات الفرسان والشجعان تهرع من مدن الشام ، وتضع نفسها تحت قيادة قطز استعدادا لقتال التتار . وفى الوقت نفسه عمد أمراء الشام إلى إرسال أسرهم من نسائهم وأولادهم وكنوزهم إلى مصر ، انتظارا لما يسفر عليه الموقف مع التتار . وأصبحت الديار المصرية تعمل على قدم وساق فى بذل المال وتدريب الجند ، حتى صارت الروح المعنوية عالية بين السكان ، ولاسيما نتيجة اختفاء كل أثر للطابور الخامس من التتار فى البلاد .

حركات المقاومة فى الشام

دفاع حلب :

وصمم هولاكو على إفساد خطة المصريين فى الشام ، والقيام بعمل حربى واسع النطاق ، يعيد الذعر فى النفوس ويتيح له السيطرة على تلك البلاد قبل أن تتم السلطات المصرية استعدادها الحربى . فاتخذ من حران بشمالى العراق مركزا لعملياته الحربية ، وأرسل مقدمة جيوشه تحت إمرة ابنه أشموط للاستيلاء على الشام . وكانت حلب هى محط أنظار التتار ، إذ أرسل هولاكو إلى صاحبها الملك المعظم توران شاه رسالة يقول فيها : « إنكم تضعفون عن لقاء المغل (التتار) ، ونحن قصدنا الملك الناصر وعساكره (فى دمشق) ، ونرى أن تجعلوا فى بلدتكم فرقة من جيشنا ، وكذلك بالقلعة عندكم ، فإذا انتصرنا كانت البلاد لنا ، وكنتم بذلك قد حقنتم دم المسلمين ، وإن كانت الهزيمة لنا ، فافعلوا ماتريدون » . وانتشرت الفوضى بين الناس ، وأخذوا يهاجرون من حلب إلى دمشق طلبا للأمان هناك .

غير أن مجهودات مصر لم تضع هباء فى رفع الروح المعنوية لدى بعض أمراء الشام ، ذلك أن الملك المعظم صاحب حلب أبى إجابة التتار إلى طلبهم ، وقال لرسول هولاكو : « ليس بيننا وبين التتار إلا السيف » . ثم أخذ يحصن مدينته ويقوى أسوارها وقلاعها ، حتى صارت فى غاية القوة والمنعة ، وبها آلات القتال العديدة ، ولما بدأ التتار حصار حلب عجزوا عن الاستيلاء عليها . غير أن انقسام رأى العسكريين فيها أفسد تدبير الملك المعظم ، إذ رأى فريق من رجال الحرب وعلى رأسهم الملك المعظم ، البقاء داخل الأسوار حتى يتسرب الملل إلى التتار ويرفعوا الحصار ، على حين رأى فريق آخر أنه لا بد من الخروج لقتال التتار ، وعدم البقاء وراء الأسوار . وتغلب الرأى الثانى بفعل الطابور الخامس . وحين خرج جند حلب والتقوا بالتتار ، أمر قائد التتار جنده بالتقهقر كأنهم قد هزموا ، خديعة منه ، وإغراء لجند حلب على مطاردتهم والابتعاد بالتالى عن حصونهم . وبعد ساعة من المطارده عاد التتار وهجموا على جند حلب وأنزلوا بهم هزيمة فادحة ، وذلك سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . ثم حاصر التتار قلعة المدينة حتى سلمت بعد سبعة أيام ، وقتلوا حاميتها . واستباح التتار لأنفسهم مدينة

حلب بعد ذلك وقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والأطفال حتى صارت عساكر التتر تمشى على جيف من قُتل ، كما أسرت مايزيد على مائة ألف من النساء والأطفال . وأمر هولاكو بتدمير أسوار حلب وجوامعها وبساتينها حتى صارت مقفرة موحشة .

ثورة دمشق على التتار :

ولما بلغ دمشق أخبار سقوط حلب فى أيدى التتار استعد صاحبها الملك الناصر للحرب والدفاع عن مدينته . واجتمع لديه جيش كبير بلغ نحو مائة ألف ، كما فرض الضرائب على الناس لإعداد العدة للقتال . ولكن ما إن خرج الملك الناصر إلى ضواحى دمشق حتى بدأ الطابور الخامس ينشر الفوضى والذعر فى نفوس الناس وبين الجند كذلك . فدبت الفوضى بين الأهالى ، وباعوا أمتعتهم بأبخس الأثمان استعداداً للفرار ، وغلت أجور النقل حتى بلغت أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة ، وأصبح الجميع فى حالة هرج « حتى كأن القيامة قامت ». ومن ثم أدرك صاحب دمشق أنه من العبث منازلة التتار وأتباعه على مثل هذه الفوضى

الشديدة، وأخذ يسير قاصداً مصر مع الملك المنصور صاحب حماه، الذى انضم إليه من قبل للقتال.

ولما بلغ صاحب دمشق العريش بعث القاضى برهان الدين رسولا إلى الملك قطز، ومعه صاحب حماه يطلب منه المساعدة والنجدة. ولما وصلت عساكر صاحب حماه مصر استقبلها الملك قطز أحسن استقبال، وأخذ يبث الأمل فى قلوبهم ويعيد إليهم السكينة والطمأنينة. أما الملك الناصر فإنه تأخر حتى يرى نتيجة المفاوضات مع قطز، وهنا بادر جواسيس التتار المنبثون فى حرسه الخاص بالقضاء عليه قبل أن يصله الرد من مصر. ذلك أن أحد غلمان الملك الناصر ممن يعمل فى السر مع التتار أرشد طلائعهم التى اقتربت إذ ذاك من الحدود المصرية على مكان سيده، الذى ألقى عليه القبض، وحمل أسيراً إلى هولاكو فى شمال الشام.

وفى تلك الأثناء كان هولاكو قد بدأ الزحف على دمشق بعد ستة عشر يوما من استيلائه على حلب. وبدأ عملاء التتار وعلى رأسهم الأمير زين الدين الحافظى، الذى أهانه بيبرس من قبل، نشاطهم فى تمهيد الطريق أمام هولاكو. ورسم الأمير زين الدين خطط الخيانة فى دقة، ووفق التعليمات التى تلقاها من

التتار ، حيث ساعده على ذلك خلو دمشق من القوة المدافعة عنها، بعد التجاء جندها إلى الملك قطز في مصر . فأغلق الأمير زين الدين أبواب دمشق وجمع من بقى فيها من الناس وقرر معهم تسليم المدينة إلى هولاكو . وتسلمها فعلا عملاء هولاكو الذين كانوا مقيمين خارج المدينة ومن بينهم الخائن فخر الدين المردغانى ، ثم كتبوا إلى هولاكو يخبرونه بما حدث وينتظرون منه الأوامر .

وكان هولاكو قد استقبل فى حلب خائناً آخر هو قاضى دمشق محيي الدين بن الزكى ، فمنحه خلعاً ثمينة وولاه قضاء الشام كله ثم بعث به إلى دمشق ثانية ومعه وال من قبله ، ثم جمع ابن الزكى الناس فى الجامع ، وارتدى خلعة هولاكو ، وقرأ عليهم تقليد هولاكو له بولاية القضاء ، وغير ذلك من الأوامر التى تقضى بأمان أهل دمشق . ثم تتابعت رسل هولاكو توزع الرشاوى على العملاء ، الذين كان معظمهم ويا للأسف ! من رجال الدين ، فصار القاضى كمال الدين عمر التفليسى قاضى القضاة بمدائن الشام والموصل ، كما صار إليه حق إدارة الأوقاف وما يتبعها من أراض وعقارات . وبدأ الأمير زين الدين الحافظى يفرض على الناس الضرائب الباهظة ، ويجمع الأموال

ويشترى بها الثياب ويقدمها هدايا إلى نائب هولاكو المعروف باسم كتبغا ، وكان قد وصل دمشق مع جيشه للإشراف على تنفيذ مؤامرة تسليم تلك البلدة . وأمر هولاكو إكمالا لمؤامرة جواسيسه وتمكيناً لسلطانه فى دمشق فى هدوء بأن يعين الملك الأشرف صاحب حمص ، والذى سبق أن انضم إلى التتار ، نائباً عنه على الشام كلها وجاء الملك الأشرف إلى دمشق ومعه مرسوم هولاكو .

ولكن نفراً من حامية دمشق ، الموكل إليهم حراسة قلعتها ومنهم الأمير بدر الدين محمد والأمير جمال الدين بن الصيرفى ثاروا على أولئك الخونة واعتصموا بالقلعة ، وأغلقوا أبوابها معلنين الثورة على التتار ، وضاربين أروع الأمثلة فى عدم قبول الضيم . غير أن كتبغا قائد التتار فى دمشق أسرع بحصار القلعة . وقد وقعت بعض الأمطار كما هبت ريح شديدة صحبها برق فى عدة أماكن مما ساعد رجال الحامية على الصمود طويلا أمام التتار ، وذلك لمدة بلغت شهراً تقريباً . ولم يستطع كتبغا الاستيلاء على القلعة إلا بعد أن نصب عليها عشرين منجنيقا أخذت ترمى أسوارها والمدافعين عنها بوابل من الحجارة ، وتهدم أبراجها . ثم دخل التتار القلعة ونهبوا سائر ما كان فيها وأتلفوا ما تبقى

فيها من الآلات والعدد ، كما دمروا البقية الباقية من الأبراج .

غير أن هذه الأمثلة الرائعة من أعمال المقاومة فى الشام كشفت عن روح البطولة الكامنة فى نفوس أهاليها وأخذت تثير الرعب لأول مرة فى نفوس التتار . فركب هولاكو رأسه، وأصدر أمره بتدمير أسوار مدن الشام التى خضعت له دون قتال ودك قلاعها وأبراجها وقتل أهلها فى غير رحمة أو شفقة . وسقطت وسط تلك الحملة العنيفة من هجمات التتار الجديدة على البقية الباقية من مدن الشام بلدة ميافارقين التى سبق أن حاصرها التتار منذ هجموا على الشام لأول مرة فى سنة ٦٥٦ هـ عقب سقوط بغداد . فقد ظلت تلك البلدة تقاوم هجمات التتار المتتابعة عليها مدى عامين كاملين ، وتضرب أروع الأمثلة فى الجهاد والاستشهاد ، حتى فنيت مواد التموين وتفشى الوباء بين الأهالى . وكان صاحبها الملك الكامل يبث فى رعاياه من روح الثقة بالنفس ويحثهم على القتال بما خلد له ولأهالى بلدته صفحة مشرقة فى تاريخ مقاومة التتار .

غير أن كثرة التتار غلبت أخيراً شجاعة أهل ميافارقين وملكها الكامل، وسقطت فى سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. وكشف التتار عن وحشيتهم وما حملوه من بغضاء لصاحب ميافارقين حين قتلوه عقب استيلائهم على البلدة ، إذ حملوا رأسه على رمح

وطافوا به فى سائر بلاد الشام لإرهاب أهلها ، مروا على حلب وحماه ، وأخيراً إلى دمشق ، حيث طافوا بالرأس فى الشوارع بالمغانى والطبول وعلقوه أخيراً فى شبكة بسور باب الفراديس. وشاءت الأقدار أن تكرم هذا البطل العربى ، بعد أن استردت الجيوش المصرية الشام من التتار ، إذ دفنت الرأس بمشهد الحسين حيث رثاه ابن أبى شامة بقوله :

ابن غازى غزى وجاهد قوما ... أثخنوا فى العراق والمشرقين
طاهراً عالياً ومات شهيدا ... بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه ... وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك ... الرأس واستعجبوا من الحالين

غير أن روح المقاومة التى أظهرها أهل الشام لم تلبث أن علت وقويت ، حيث كانت الجيوش المصرية قد أتمت استعدادها سريعاً ، وانتقلت من جبهة دمياط حيث هزمت الصليبيين إلى جبهة الشام لتسحق التتار ، وتعلى راية العروبة مرة أخرى فى الشرق العربى .

مصر تنقذ الشرق العربي من التتار

توحيد القيادة الشامية المصرية :

عمدت مصر منذ جاءتها استغاثات أمراء الشام ضد هجمات التتار إلى خلق جبهة عربية متحدة ، تتصدى لهذا العدوان الجديد الذى مزق العراق والشام ، وكاد يطيح بحضارة الشرق العربى وتراثه . واستلهمت مصر تلك الفكرة من جهادها الذى فرغت منه منذ زمن يسير ضد الصليبيين ، حيث أدركت السلطات المصرية أن فى تضامن البلاد العربية وتوحيد صفوفها خير سبيل لصد اعتداءات الطامعين والمستعمرين على اختلاف نزعاتهم وأساليبهم . فلم يتمكن التتار من اكتساح الرقعة الشاسعة التى سيطروا عليها من بلاد الشرق العربى إلا بعد أن نجح طابورهم الخامس فى عزل أمراء المدن العربية بعضهم عن بعض ، وقيام العملاء بتمهيد الطريق أمام زحف التتار الحربى . فجيوش التتار الهائلة كانت تتجمع وحداتها وتتفق خطط قادتها على عزل المدن العربية الواحدة

عن الأخرى ، ثم تكريس ضرباتها مجتمعة إلى إحدى تلك المدن بحيث تتغلب الكثرة على شجاعة العرب ، مهما بلغت من درجات المقاومة والعنف .

وظلت جحافل التتار تحدث أعمالها من تخريب المدن العربية التى قابلتها ، وتقتل أهاليها دون أن تقوم جبهة موحدة لدفع أذاهم وصد إغاراتهم . فكان التجار والعملاء من ضعاف النفوس فى البلاد العربية يزودون التتار بأدق المعلومات عن القوات العربية وأسلحتها وقدرتها على القتال ، فضلا عن إضعاف الروح المعنوية وإشاعة الذعر فى النفوس قبل نشوب المعارك . وصار التتار يسيرون من نصر إلى نصر ومن تخريب إلى تدمير حتى أصبح الاعتقاد الشائع أنهم قوم لا ينهزمون ، وليس من المجدى التعرض لهم بسوء .

ولكن مصر ضربت للشرق العربى مثلا ثانيا فى فترة قصيرة على أن نجاته رهن بتضامنه ، وأن أبناءه وحدهم قادرون على حمايته وإنقاذه من أى خطر مهما عظم . ففى المرة الأولى بهرت مصر أعين الشرق العربى بتحطيم قوات الصليبيين عندما نجحت فى تأسيس جبهة عربية موحدة ، والآن نهضت مصر تدعم تلك الحقيقة بضم الصفوف لمقاتلة التتار . وكان أمام مصر البقية الباقية

من أمراء الشام الذين أبوا الاستسلام للتتار ، وجاءوا بجيوشهم إلى حماها ، يلتمسون عندها التوجيه والإرشاد ، ويضعون خدماتهم فى سبيل إنقاذ الشرق العربى .

وأثبت سلطان مصر إذ ذاك وهو قطز أنه رجل الموقف ، فبادر إلى إعداد الصالحية وجعلها مركزا لتجمعات قوات الشام المقيمة بمصر. وخرج بنفسه إلى مقابلة أولئك الأمراء والترحيب بهم ، وتيسير سبل الإقامة لهم ، وفى الوقت نفسه أخذ يرفع من روح أولئك الجند المعنوية ، ويبث فيهم الأمل والثقة بالنفس ويزيل ما علق فى عقولهم من عقد نفسية عن وحشية التتار وأنهم قوم لا ينهزمون . واستطاع قطز أن يوفق فى تلك المهمة الشاقة ، لأن الديار المصرية كانت خالية من الطابور الخامس ومن عملاء التتار ، وأصبح أهلها نتيجة جهادهم السالف ضد الصليبيين أصحاب رسالة أبدية فى السهر على حماية الشرق العربى ، ولا سبيل لخائن بين صفوفهم .

وكان من أولئك الأبطال من جند الشام وأمرائهم الملك المنصور محمد صاحب حمص وأخوه الملك الأفضل ، فضلا عن قوات الملك الناصر صاحب الشام ، التى التجأت إلى مصر بعد أن قبض جواسيس التتار على قائدهم و بعثوا به إلى هولاكو .

فكان أولئك المقاتلون الشجعان قد استقروا فى الصالحية ، وبدأوا ينظمون صفوفهم من جديد بفضل جهود الملك المظفر قطز سلطان مصر . وأثبت هذا النفر من أبطال الشام تفانيا فى نصرة القضية العربية ، حيث كانوا عنوانا عاليا على التضحية وحب النظام ، وقضوا وقتهم بمصر فى إتمام استعداداتهم الحربية ، والعمل على استئناف الجهاد مع الجيوش المصرية .

وانتهت السلطات المصرية فى وقت قصير من تعبئة قواتها لحرب التتار . إذ بعث السلطان قطز إلى عماله على المقاطعات المصرية يأمرهم بجمع الجنود الذين عادوا إلى بلادهم بعد الانتهاء من حرب الصليبيين ، وإرسالهم سريعا إلى القاهرة . وتولى نفر من رجال مصر تلقين أولئك الجند المهمة التى انتدبوا للدفاع عنها ، وتهيئة شعورهم للجهاد . وفى الوقت نفسه أسرع الأهالى بأداء الضرائب المطلوبة منهم حتى يتسنى إعداد الجيوش المصرية والإنفاق على مطالبها . وفضلا عن ذلك دفع كل مصرى دينارا أشبه بضريبة الدفاع ، حيث خصصت حصيلتها للحملات الجديدة ضد التتار ، وعنوانا على مساهمة المصريين جميعا مدنيين وعسكريين فى الدفاع عن وطنهم العربى الأكبر .

وسار قطز بعد ذلك على رأس القوات المصرية إلى الصالحية حيث انضم إلى القوات الشامية هناك. وحرص قطز على ألا يضيع الأمراء وقتهم فى المجاملات الرسمية، أو إنفاق مبالغ لا داعى لها فى سبيل الترحيب بمقدم السلطان. فطلب من الملك المنصور محمد صاحب حماة ألا يعد ولائم لمقدمه أو لأمرائه، وأن يكتفى الجند بتناول قطع من اللحم المقدد يضعونها فى المخلاة التى تضم باقى حاجاتهم الغذائية. ولما تكامل اجتماع الجند استدعى قطز الأمراء وأخذ يخطب فيهم شارحا لهم الواجب الخطير الذى ألقى على عاتقهم، ويحثهم على الجهاد، ويبين لهم أن الرواتب التى تناولوها من بيت المال، إن هى إلا ضريبة قدمها لهم أبناء الوطن فى سبيل تحملهم أعباء الدفاع، وأن الجميع ينظرون إليهم بعين ملؤها الأمل والتقدير، بعد أن جاءت ساعة العمل. وكان خطاب قطز فى هذا المجلس الحربى خطابا حماسيا أعلن فيه أنه أول من يخرج لقتال التتار، ولو كان بمفرده، فلن يتردد فى أن يضحى بنفسه فى سبيل صد هذا التيار الكاسح، ويلقى ربه مرتاح الضمير بعد أن يؤدى واجبه. فقال قطز فى ختام كلامه: «أنا ألقى التتار بنفسى، فمن اختار الجهاد صحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه،

وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » .

وانتقلت روح الحماسة من قطز إلى سائر الأمراء ، ولا سيما أن فصل الختام فى قوله ألقى عليهم مسئولية حماية الأمة العربية كلها والذود عن نسائها وأطفالها ، وأن الله مطلع على المقصرين المتخاذلين ، وأنه سوف يحاسبهم يوم القيامة على تقاعدهم عن نصرة الوطن . وبدأ كبار قادة الجند يجيبون قطز بأقوال تكشف عن إيمانهم بواجبهم ويعلنون تأييدهم له فى خروجه لقتال التتار ومن هجماتهم المخربة على الشرق العربى . ثم أيد هؤلاء القادة الحربيون كلامهم بالقسم ، الذى هو الضمان الأخير على أن المرء جعل من الله شهيدا على ما يقول . ونهض سائر رؤساء الفرق الحربية ، كبيرها وصغيرها بعد ذلك وقدموا قسم الولاء والإخلاص .

فشل تهديدات هولاكو :

وفى تلك الفترة العصيبة التى قضتها السلطات المصرية فى الاستعداد الحربى ، وتدعيم شمل القوات الشامية وصل من عند هولاكو خطاب مطول موجه إلى قطز سلطان مصر ، يحمل إليه الوعيد والتهديد ويطلب منه سرعة الخضوع للتتار

على نحو ماحدث لسائر أمراء العرب فى العراق والشام ، وهذا هو نص الخطاب :

« من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . . . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وماحولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم ، وأى طريق ينجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فالحصون لدنيا لاتمنع والعساكر لقتالنا لاتنفع ، ودعاؤكم علينا لايسمع . . .

« فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، وإن

خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم العجزة ، وقد سلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة والأحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل . . . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون مناجاها ولا عزاً ، ولا كافياً ولاحرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منا خالية ، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى » .

ولكن هذا الخطاب المطول ، الذى دبجه قلم الطابور الخامس وعملاء التتار من العرب ، لم يكن لينال من نفس أصحاب السلطان فى مصر ، إذ التتار هنا يواجهون جبهة عربية متحدة لا أقواما متفرقين ، وعزما أكيدا على القتال لاخورا وضعفاً على نحو ماحدث فى العراق . ومن ثم لم يكن هولاكو موفقاً فى هذا الخطاب ، وخاب ظنه فى تلك المرة ، ذلك أن قطز أجاب على هذا الخطاب إجابة قوية جريئة وغير منتظرة

بالنسبة لسمعة التتار الوحشية وانتقامهم المرعب ممن ينال عمالهم بأذى ، فأمر بقتل رسل التتار الذين حملوا إليه الخطاب السالف الذكر ، وكان عددهم أربعة ، وذلك بعد أن أقره مجلس الحرب على هذا العمل ، رمزا على تضامن الجميع فى تحمل المسئولية ، وتعاونهم فى الدفاع . وفى الوقت نفسه أمر قطز كذلك بتعليق رؤوس الرسل الأربعة فى جهات متفرقة من القاهرة حتى يعلم الناس جميعا تصميم السلطات المصرية على الجهاد ، وإزالة الخوف والرهبة من نفوسهم بخصوص التتار . فعلقت رأس الأول فى سوق الخيل تحت القلعة ، والثانى على أحد أبواب القاهرة إذ ذاك ويعرف باسم باب زويلة ، والثالث على باب النصر ، والرابع بالريدانية على مقربة من العباسية الحاليـة .

مسير الجيوش العربية :

وأتبع قطز قتل رسل التتار بإصدار أمره إلى سائر القوات العربية بالمسير إلى الشام . وكان هولاكو قد اضطر فى ذلك الوقت إلى العودة إلى عاصمة التتار الكبرى فى قره قورم بسبب وفاة منجوخان وانتخاب خاقان جديد بدلا منه . وترك

هولاكو على رأس قواته الهائلة بالشام أعظم قادته وأشهرهم جرأة ومقدرة على التخريب وهو المعروف باسم كتبغا . وكانت جحافل التتار قد انتشرت فى سائر أرجاء الشام تعيث فيها فساداً حتى دخلت غزة على أطراف الحدود المصرية نفسها ، ونهبت أموال الأهالى وماشيتهم ، وكل شىء وقع فى أيديهم .

وفى شهر رمضان سنة ٦٥٨/١٢٦٠م خرجت القوات المصرية الشامية وهى على تمام الاستعداد لمنازلة التتار ، ويسودها النظام الدقيق . ذلك أن السلطان قطز أمر ركن الدين بيبرس البندقدارى بأن يتولى قيادة الطليعة من جيوش الجبهة العربية ويتقدم فى الزحف ليستطلع أخبار التتار ويدرس مواقفهم وخططهم ، وهو شىء جديد لم يشاهد من قبل فى حروب العرب ضد التتـــار . إذ كان أمراء المدن العربية يكتفون بتقوية الحصون عندما يصلهم تهديدات التتار ، ويؤثرون السلامة فى الدفاع من وراء الأسوار ، دون أن يتنبهوا إلى أنهم صاروا فى مصيدة لانجاة منها ، قد وضعوا أنفسهم فيها طوعاً واختيارا . غير أن خطة قطز كشفت عن فهمه لفنون الحرب ، وأن الهجوم خير من الدفاع فى مقاتلة الأعداء ، حين بعث بركن الدين بيبرس على مقدمة الجيوش العربية إلى الشام . وفى الوقت نفسه كان اختيار

هذا القائد ليتولى قوات الطليعة العربية اختيارا موفقا ، يدل على أن قطز ليس قائدا حربيا فحسب ، بل رجلا سياسيا كذلك يدرك ما للعامل النفسى من أثر فى رفع الروح المعنوية ، فركن الدين بيبرس صاحب انتصارات واسعة من قبل ، ومشهود له بالجرأة فى الشام ضد المستسلمين للتتار ، مما يجعله أهلا لتولى تنفيذ الخطة العربية ضد التتار .

ونجح قطز فى المرحلة الأولى من زحفه ، إذ ما كاد ركن الدين بيبرس يصل إلى أطراف الحدود المصرية حتى علم بوجود التتار فى غزة ، فسارع إلى ملاقاتهم دون خوف أو وجل . وسرعان مادبّ الضعف فى نفوس التتار الذين لم يتوقعوا هذا الزحف المفاجئ من الجيوش المصرية الشامية ، وهربوا من غزة ، مسجلين على أنفسهم أول انسحاب لهم فى تاريخهم الحربى . ودخل ركن الدين بيبرس غزة ، ومهد الطرق إليها لاستقبال القوات الرئيسية . وسرعان ما وصل قطز إلى غزّة وأقام بها يوما ، ثم تابع مسيره لملاقاة التتار . واختار قطز طريق الساحل حتى وصل إلى عكا التى كانت إذ ذاك ملجأ بقايا الصليبيين بالشام بعد أن فقدوا كل ممتلكاتهم فى تلك البلاد ، وتشبثوا بهذه الرقعة الصغيرة الساحلية . وأظهر قطز مهارة

سياسية إلى جانب مقدرته الحربية فى هذه المرحلة الهامة من زحفه إلى ملاقاة التتار . ذلك أن الصليبيين بادروا إلى الترحيب به ، وأظهروا استعدادهم لمعاونته ضد التتار. غير أن قطز لم ينس محاولات عقد تحالف سابق بين التتار والصليبيين ضد الشرق العربى ، وعمد إلى أن يقوم الدفاع عن هذا الوطن العربى الأكبر على أكتاف أبنائه وحدهم ، لأن التجارب العديدة أثبتت صحة هذه النظرية . فرد قطز على الصليبيين قائلا : إن كل ما يبتغيه منهم هو « أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر » .

وكسب قطز بمفاوضاته مع الصليبيين جولة هامة فى سبيل محاربة التتار ، ذلك أنه أمن على خطوط مواصلاته وتموينه ، وجعل ظهره بعيدا عن أى هجوم مفاجئ . ثم أخذ يستعد لقتال التتار وإنزال ضربة قاصمة بهم .

معركة عين جالوت :

وشاءت الأقدار أن تجعل ميدان معركة تحرير الشرق العربى من خطر التتار على أرض فلسطين التى سبق أن خلد

على ترابها صلاح الدين انتصاراته الرائعة على الصليبيين . ذلك أن قطز استمر على خطته التى تستهدف المبادرة بالهجوم ، وأمر ركن الدين بيبرس أن يتابع إغاراته الجريئة على قوات التتار المبعثرة فى سائر أنحاء البلاد ، وأن يتصدى لطلائعهم التى دأبت على إثارة الفزع والرعب فى نفوس الأهالى . وأثبت بيبرس مهارة فائقة فى مناوشة التتار وفى الكر والفر حتى اختبر قوتهم ومواضع تجمعاتهم وصار على علم تام بكل حركاتهم . وبعث بيبرس بتقاريره إلى قطز الذى تابع السير حتى انضم إلى بيبرس عند عين جالوت ، بين بيسان ونابلس بفلسطين .

ونظم قطز القوات المصرية والشامية عند هذا الموقع الجديد ، وجعلهم على أهبة قتال التتار . ثم أمر بعقد مؤتمر حربى حضره رؤساء الفرق الحربية لرسم خطة المعركة . ولم ينس قطز أن يستغل هذا المجتمع ليثير الحماسة فى نفوس الحاضرين ويذكرهم بجلال الدور الذى سيقومون به ، وأهميته فى إزالة المفاسد والمذابح التى سبق أن قام بها التتار ، فحضهم « على قتال التتر ، وذكرهم بما وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم

عقوبة الله » . وكان خطاب قطز بليغا فى استعراضه لمساوئ التتار ، كما كان مؤثرا فى عرضه حتى إن الأمراء ورؤساء الفرق الحربية أجهشوا بالبكاء وصمموا على الاستماتة فى محاربة هذا العدو المخوف ، وأقسموا أغلظ الأيمان على التفانى فى الجهاد .

واستعد كتبغا ، نائب هولاكو بالشام ، عندما بلغه نبأ زحف القوات المصرية الشامية ، فأصدر أمره بجمع الجند المتفرقين فى سائر أنحاء البلاد ، وتنظيم صفوفهم عند عين جالوت. ثم عقد مجلس الحرب لدراسة الموقف . وكشف كتبغا عن حيرته حين سمح للعملاء العرب بين صفوفه بحضور هذا المؤتمر واستشارتهم فى وضع خطته الحربية ، وكان من هؤلاء العملاء الملك الأشرف صاحب حمص وقاضى القضاة محي الدين وغيرهما ممن باعوا ضمائرهم أو فقدوا صوابهم ورشدهم . وانقسم الرأى فى مجلس الحرب ، حيث أشار البعض بعدم الاندفاع وطالب بالترتيب حتى تأتى نجدات من عند هولاكو ، ولا سيما أن القوات العربية الجديدة لها رئاسة رائدها البطولة والإقدام . وأشار نفر آخر بالمبادرة بالحرب لإفساد خطة قطز الحربية . وأنهى كتبغا هذا المؤتمر الحربى بتأييد الرأى القائل بالهجوم ،

ولا سيما بعد أن توغلت القوات العربية في إقليم فلسطين ، وأنزلت متاعب شديدة بالتتار .

وفى يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م التقت مقدمة القوات العربية بطلائع التتار وأنزلت بها هزيمة فادحة . وفى صبيحة اليوم التالى استطاع التتار أن يعيدوا تنظيم صفوفهم واحتلوا المنطقة الجبلية من مسرح القتال ليسيطروا على الميدان ، حتى صار منظرهم يبعث على الرهبة فى النفوس ، ولا سيما أنهم كانوا متحفزين للانتقام والدخول فى معركة حاسمة . وزاد فى خطورة الموقف الذعر الذى ساد أهل القرى المجاورة ، وكثرة الضوضاء حتى امتلأ وادى عين جالوت بالصياح والضوضاء . وعندما اصطدم العسكران أظهر السلطان قطز مهارة وشجاعة نادرة فى القتال ، ورفع روح الجند المعنوية ، فاشترك بنفسه فى المعركة ، وحدث أن جواده أصيب بسهم أرداه قتيلا ، فنزل قطز من على الجواد ، وصار يحارب على قدميه . ورآه بعض الأمراء الأبطال فترجل عن جواده وقدمه له ، فامتنع قطز من ركوبه وقال له : ما كنت لأمنع المسلمين من الانتفاع بك فى هذا الوقت . وظل قطز يحارب على قدميه حتى جاءه أتباعه بجواد آخر .

ولما اشتد القتال ألقى قطز خوذته على الأرض وصاح بأعلى صوته : وا إسلاماه ، وحمل بنفسه على التتار . فازداد نشاط الجند العربى ، وهجموا على التتار فى عنف ، حتى إن قائدهم الأعلى كتبغا خر قتيلا . وكان ذلك إيذانا بانهيار خطط التتار ، ذلك أن كتبغا كان من خيرة خبرائهم الحربيين ، و « يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره . وكان بطلا شجاعا مقداما خبيرا بالحروب وافتتاح الحصون والاستيلاء على الممالك ، وهو الذى فتح معظم بلاد العجم (فارس) والعراق ، وكان هولاكو ملك التتار يثق به ولا يخالفه فيما يشير إليه ، كما يحكى عنه عجائب فى حروبه » . وقضت القوات العربية باستبسالها فى القتال على هذا الداهية التترى ، الذى قال عن مقتله أحد المؤرخين العرب « إلى سقر وبئس المصير ، ولقد استراح الإسلام منه ، فإنه شر عصابة على الإسلام ولله الحمد على هلاكه » .

وذهل التتار من هذا القتل الذريع الذى حل بهم ، وأرادت البقية من شجعانهم أن تستأنف الحرب ، فجمعت صفوفها مرة أخرى ، وهجمت على القوات العربية فى شدة وعنف حتى صار القتال أشبه بالزلزال من تقارع السيوف وآلات الحرب . وهنا صاح قطز مرة أخرى أثناء القتال « وا إسلاماه ! »

ثلاث مرات تشجيعا لجنده ، ودلالة على اشتراكه بنفسه فى الحرب ، كما أخذ يردد « يا الله انصر عبدك قطز على التتار » . واستجاب الله لهذا النداء الذى يستهدف إنقاذ العروبة ووطنها ، وحلت بالتتار هزيمة نكراء قضت على معظم فرسانهم وشجعانهم . وعندئذ نزل قطز عن جواده « ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكرا لله تعالى » . وكان ركن الدين بيبرس ساعد قطز الأيمن فى هذه المعركة ، وأظهر شجاعة عالية فى القتال أضافت إلى مجده الحربى السابق فى منازلة طلائع التتار .

وحملت رأس كتبغا إلى القاهرة ، مع البشرى بالفوز ونجاة الوطن العربى من كارثة التتار . وأظهر قطز قسوة بالغة بالعملاء العرب الذين كانوا فى صفوف التتار ، ووقعوا أسرى فى يديه . فبعد الفراغ من المعركة حضر أولئك العملاء ومنهم الملك السعيد حسن ، الذى آثر الانضمام إلى التتار ، وحارب فى صفوفهم فى واقعة عين جالوت فى عنف وشدة . وأمر قطز بضرب عنق هذا الخائن ، الذى حاول استدرار العطف بالاعتذار ، متناسيا ما جنت يداه على أبناء وطنه العرب .

وبلغت أنباء هذا النصر دمشق بعد يومين من المعركة ، فأخذ أهلها يهتفون ويرددون أناشيد الفوز والسرور . وفر

أول عميل للتتار بها وهو الأمير الزيد الحافظى الذى سبق لبيبرس إهانته حين دخل التتار دمشق ، وكذلك فر نواب التتار من تلك المدينة ، مع غيرهم من المشايعين لهم ، وذلك بعد أن سيطروا على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام . ثم ازدادت جرأة الأهالى وحماستهم ، وهجموا على ممتلكات التتار كما أنزلوا العقاب القاسى بكل من سقط فى أيديهم من الخونة ، ومنهم فخر الدين الكنجى ، أحد رجال الدين بجامع دمشق ، « فكان من أهل العلم ، ولكنه كان فيه شر ، وكان رافضيا خبيثا ، وانضم إلى التتار » . فقتل الناس هذا الخائن الذى لم يرع حرمة الدين ، وغيره من أعوان التتار ، مثل ابن الماسكينى وابن النفيل .

وتابع الملك قطز ومعه الملك المنصور صاحب حماه السير إلى دمشق ، ولما وصل طبرية بعث إلى سلطات دمشق رسمياً يخبرها بما ناله من نصر ، ويحث الأهالى على التمسك بالنظام وتجنب الفوضى ، وفى آخر شهر رمضان دخل دمشق ونزل بقلعتها ، حيث استقبله الأهالى بالترحاب « وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ، ولأنهم

ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكرا إلا هزموه ، فابتهجت الرعايا بالنصرة عليهم وبقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام . »
ولم ينس قطز واجباته وسط مظاهر الترحيب ، فبادر إلى عقاب الخونة وعملاء التتار دون أن تأخذه بهم شفقة ، ويجزى الأبطال العرب من أهل الشام ، الذين ضحوا فى سبيل العروبة ضد التتار . فأمر بشنق العملاء ومنهم حسين الكردى الذى سبق أن قبض على الملك الناصر صاحب دمشق داخل الحدود المصرية وسلمه إلى طلائع التتار فى جنوب الشام .

وبادر قطز وهو فى دمشق إلى إرسال ركن الدين بيبرس على رأس القوات العربية لمطاردة التتار فى شمال الشام وتطهير البلاد منهم نهائياً . وكان لهذا الزحف الحربى العربى أثر كبير فى النفوس ، إذ سارع صاحب حمص ، وهو الملك الأشرف موسى ، الذى عينه هولاكو نائباً عنه على الشام إلى طلب الأمان من قطز والانضمام إلى صفوف العرب ، وأجابه قطز إلى طلبه ، حتى أصبح التتار فى ذعر شامل ، وشربوا من الكأس التى جرعوها لضحاياهم من قبل . فلما علموا بأن القوات العربية وعلى رأسها ركن الدين بيبرس قد اقتربت من حمص حتى ألقوا ما معهم من متاع وأسلاب ، وأطلقوا الأسرى ، ورموا أولادهم

طلباً للنجاة بأنفسهم . واستطاعت الجيوش العربية أن تنزل بفلول التتار هزيمة فادحة ، جعلت هولاكو ، صاحب خطة غزو الشام يفقد صوابه ، ولا سيما بعد أن قتل نائبه كتبغا ، ورأى نهاية مجهوداته تكلل بالخزى والعار . وعبر هولاكو عن حقده وغضبه تعبير اليائس ، إذ أمر بقتل الملك الناصر صاحب دمشق ، الذى سبق لعملائه إلقاء القبض عليه ، ومعه كثير من العرب الذين خانوا بلادهم وانضموا إلى صفوف التتار ، حتى صار العقاب الذى حل بهؤلاء العملاء عبرة لغيرهم على مرّ الأيام والسنين .

وعاد ركن الدين بيبرس بعد أن طهر الشام من فلول التتار ، والتقى مرة أخرى مع قطز فى دمشق . وبدأت بعد هذا النصر مرحلة جديدة كشفت فيها مصر عن احترامها لحقوق جيرانها من أمراء المدن العربية ، كما ضربت أروع الأمثلة على أن هدفها الذى حاربت من أجله هو حماية الوطن العربى الأكبر ورد اعتباره دون تطلع إلى أى مكسبٍ مادى أو تحقيق هدف ذاتى . ذلك أن قطز حرص على إبقاء أمراء الشام على ما بيدهم من ممتلكات ، سواء ما كان منهم خاضعاً من قبل للتتار أو غيرهم ممن خرج معه إلى الجهاد ، ثم أعلن ولاءه للعروبة مرة أخرى ، وغادر الشام

لينضم إلى استعدادات مصر الحربية . فأقر قطز الملك الأشرف صاحب حمص على البلاد التابعة له ، وكان هذا الملك قد عينه هولاكو نائباً عنه بالشام ، فلما انتصرت الجيوش المصرية الشامية فى وقعة عين جالوت أعلن انضمامه إلى الجبهة العربية الجديدة . وحضر صاحب حمص إلى دمشق وجدد ولاءه وأعلن جهاده ضد التتار . ثم عين قطز كذلك الملك المنصور صاحب حماة على ما كان يحكمه من بلاد قبل مغادرته الشام أيام زحف التتار ، كما أضاف إليه جهات أخرى تقديراً لبطولته وما بذله من مجهودات فى سبيل نصر العرب .

وحرص قطز كذلك على بث الطمأنينة والرضا فى نفوس رجالات العرب من أهل الشام ، وذلك على حساب الوعود التى سبق أن أعطاها لكبار رجال جنده ، دون أن يأبه بما قد يجلبه ذلك عليه من حقد ، أودى بحياته فعلا . فقد وعد قطز ركن الدين بيبرس صاحب الانتصارات الرائعة ضد التتار بولاية حلب ، ولكن حين نظم قطز إقليم الشام ونسق إدارته من جديد جعل حلب من نصيب الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . وكان الملك السعيد من أبطال العرب الذين أعلنوا عداوتهم للتتار منذ وطئت أقدامهم أرض الشام ، فرحل

إلى دمشق حيث انضم إلى جبهة الملك الناصر صاحب دمشق ، ثم انسحب إلى مصر عند اشتداد خطر التتار وانضم إلى القوات المصرية من أجل نصرة الوطن العربى وتحريره من أعدائه .

وبذلك لقنت مصر الشرق العربى مرة أخرى درساً فى إخلاصها لوطنها العربى الأكبر ، وأثبتت لأبناء الأمة العربية أن أهلها جزء لا يتجزء منهم ، وأنها تضحى بكل ما تملك فى سبيل إعزازهم ومجدهم . وفى الوقت نفسه أكدت مصر للعرب أن وحدة صفوفهم مهما كانت قلة عدد رجالها قادرة على أن تهزم أقوى الأعداء مهما كانت كثرة عددهم . فتوحيد الجيوش المصرية مع القوات الشامية التى جاءت إلى الديار المصرية ، كسبت وقعة عين جالوت التى صارت من المعارك الحاسمة فى تاريخ الأمة العربية أولا وتاريخ العالم أجمع إذ ذاك . فقد جاء هذا النصر بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والخلافة العباسية عن مقاومة التتار ، وبعد أن خارت قوى كثير من أمراء المدن الشامية ، مع العلم بأن جيوش الجبهة العربية — المصرية الشامية — التى اشتركت فى تلك المعركة كانت بالنسبة لجيوش الدولة الخوارزمية وحدها كالنقطة فى الدائرة على حد تعبير أحد المؤرخين العرب وهو القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى . فصار العرب يتطلعون

إلى مصر مرة أخرى بعد أن زالت عنهم غشاوة التتار وانقشعت سحب العملاء وأوهام الشائعات ، ويؤمنون بصدق دعوتها فى سبيل الوحدة العربية وإخلاصها فى كل أعمالها من أجل هذه الدعوة السامية .

ومما زاد فى أهمية وقعة عين جالوت أنها لم تكن نصرا ماديا فحسب ، بل إنقاذا من عقدة نفسية رسخت فى أذهان العرب عن وحشية التتار وزحفهم الذى لا يقاوم ، إذ كانت تلك المعركة أول لطمة قاتلة نزلت فى الشرق بجيوش التتر ، بل كانت تلك اللطمة بمثابة المعجزة التى لم ينتظر أحد حدوثها ، فلما وقعت اعتقد الناس المعاصرون لأول مرة أن فى الإمكان إلحاق الفشل بالتتار بعد أن كان الاعتقاد السائد هو أنهم قوم لا ينهزمون . وما كاد العرب يتخلصون من هذا المرض النفسى العضال حتى أخذوا يحصنون أنفسهم بالتضامن ، ويسيرون قدما فى سبيل الجهاد حتى حرروا ديارهم كلها من التتار ، واستعادوا مكانتهم التقليدية وسط أمم العالم أجمع باعتبارهم رسل الإنسانية ورفاهيتها . ذلك أن خطر التتار لم يكن مقصوراً على البلاد العربية وحدها ، وإنما امتد إلى أوربا الشرقية . وكان هناك مشروع عند بيت هولاكو يهدف إلى جمع صفوف التتار

لاكتساح أوربا كلها وتخريبها بعد الفراغ من الشرق العربى .
ولكن انتصار الجبهة العربية — المصرية الشامية — فى وقعة عين جالوت أفسد خطط التتار ، وأنقذ أوربا ، وجعل أهلها يدركون أن أبناء الشرق العربى قادرون على حماية أنفسهم بأنفسهم ، وأن فى وحدة العرب وعزتهم كسباً هائلا لمجموعة الأمم العالمية بضم عضو فعال إليها ، لديه من الإمكانيات ما يكفل خدمة الإنسانية ودفع حضارتها فى مدارج الرقى والازدهار .



مطابع دار القــلم بالقاهرة